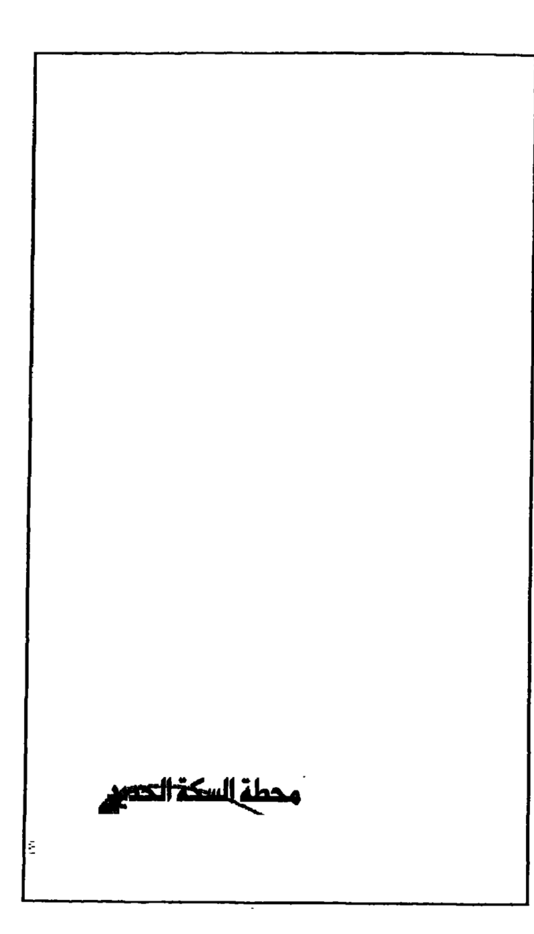




الهيئة المصرية
العامة للكتاب

محطة السكة الحديد

إدوار الخــراط


محطة السكة الحديد



مهرجان القراءة للجميع ٩٦

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

محطة السكة الحديد
إدوار الخراط

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: هيئة الكتاب

الغلاف
الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

محطة السكة الحديد

إدوار الخراط

على سبيل التقديم...

لأن المعرفة أهم من الثروة وأهم من القوة فى عالمنا المعاصر وهى الركيزة الأساسية فى بناء المجتمعات لمواكبة عصر المعلومات.. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على الرغبة الطموحة فى تنمية عالم القراءة لدى الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً ورجالاً ونساءً..

وكان صدور مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الأهمية لهذا المهرجان كأضخم مشروع نشر لروائع الأدب العربى من أعمال فكرية وإبداعية وأيضاً تراث الإنسانية الذى شكل مسيرة الحضارة الإنسانية مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة.

هكذا كانت مكتبة الأسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الأمة على منافذ الثقافة الحقيقية فى الشرق والغرب وعلى ما أنتجته عبقرية هذه الأمة عبر مسيرتها التنويرية والحضارية..

إن مئات العناوين وملايين النسخ من أهم منابع الفكر والثقافة والإبداع التى تطرحها مكتبة الأسرة فى الأسواق بأسعار رمزية أثبتت التجربة أن الأيدى تتخاطفها وتنتظرها فى منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضارى رائع يشهد للمواطن المصرى بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة فى الإسهام فى ركب الحضارة الإنسانية على أن يأخذ مكانه اللائق بين الأمم فى عالم أصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس لمن يملك القوة.

د. سمير سرحان

(١)

كانت خبطات القطار المنتظمة الرتيبة قد أتخمت نفسه ، بدقاتها المستمرة · لاتتوقف ، لاتتريث ، تتقدم دون وهن فى تصميم دائب يأكل من نفسه امتـداداث طويلة ، فى طريق لاينتهى · وكان قـد نام قليـلا ، وشبعت دماؤه ، فى تهـويم النعاس ؛ من هـذا الدق المتواصل · وبه شىء كأنه سكر وخدر من هذه الضربات العنيدة التى لاتنى ، مدفوعة الى الأمام ، فى عزم لن يقف أمامه شىء ·

وفتح نافذة القطـار ، وأفلت لحظة من الضـوء المصفر المترب الذى يسقط فى العربة المزدحمة ، يهتز كسائل كثيف مشبع بانسانية متعبة هدتها هزات الرحلة المتعاقبة · وهبت عليه من الخـارج ريح الاسـكندرية

الممدودة أمامه تحت سماء الليل ، والقطار يهتز مندفعا يدق الأرض اليها فى مجهود أخير • وأنوار الاسكندرية تومض مرمية على انحناءة خط طويل ، واعدة بأمانى غامضة ، براحة الوصول ودفء المدينة • ونسمة خفيفة ملحة هينة تأتيه عبر الخلاء المعشوشب بالحشائش الصحراوية الطويلة ، فيها عزاء ينفسح له الصدر ، ويقبل طراوته •

عاد الى مقعده ، وكان يخيم على العربة جو ثقيل مكتوم ، وقد خلع العسكرى الضخم الذى تكوم أمامه فى سترته السوداء ، طربوشه واكتفى بطاقيته الميرى من العبك الباهت تشد مابقى من شعر شائك رمادى خشن على صلعته المتينة ، وقد سكت الطفل الذى يلتصق ببطن أمه فى ملاءتها الريفية وراح الآن يمص ثديا جافا مهدلا مجعدا لاتكاد الملاءة تخفى بذاءته ، ومازال بائع السودانى يمر بالقطار ، حاملا قفته وقراطيسه الملآنة ، والشيخ الأعمى الذى يبيع النعناع وآيات القرآن وعدية يس ، والعيال العفاريت الذين هدهم التعب وبحت أصواتهم ومازالوا بعد ينتقلون من عربة الى أخرى فى خفة ، ينطون وينادون على الليمون للعطشان والكاكولا والبيس ، ويقرقعون على الجرادل المليئة بالماء

والزجاجات • وقد سقطت الرؤوس على المقاعد الخشبية فى استسلام كأنها لم تعد ملكا لأصحابها بل ملكا لقطار يدق بهم الأرض فى تصميم ، الى غاية لن يبلغها قط •

تعبت عيناه من النــور المسلول الشــاحب المعلق كالتراب فى القطار المهتز الى الأمام بسرعة لاتتناقص ، وهو يكاد يسمع مصمصة شفتى الولد الذى يرضع من بز ناشف ، وتنداح فى نفسه رغبــة فى أن يعطى من نفسه لهذه العلقة الانسانية الصغيرة التى ما تنى تتطلب الحياة ، رغبة حنانة كأن نفسه قد ذابت فى وسط هــذا الجمع من الناس ، وامتزجت بهم من الخارج ، بعصارتها الثقيلة • أذابتهم معــا تلك الســاعات الطويلة التى قضوها فى القطار فكأنهم ألصق من الاخوة : الأفندى الرث الذى يجلس الى جانبه معحقيبته القديمة المربوطة بدوبارة ، فلاشك أن قفلها قد خرب • وحتى العسكرى الذى يشخر فجأة فى نومته المليئة ، ويتنحنح من كرشه، ويعدل من جلسته القلقة على خشب الكرسى • وهذه الأم الريفية الأصل بثيابها ومدورتها البلدية على عظام وجه مرهف بشهوات حادة لا رضاء فيها ، بل هى لهفة ثاقبة لم تعرف الشــبع أبدا ، حتى مع الولد • والصــعايدة والفلاحين الراجعين الى المدينة وقد خففت الحياة قبضتها

عليهم لفترة الرحلة القصيرة ، ولكنها تركت آثار هذه القبضة القاسية على الوجوه الخشنة العميقة الأخاديد ، على الذقون النامية الشائكة لم تحلق بعـد ، والثياب الرثة غير النظيفة تماما على أجسام مفتولة أو منحولة ، لاتكاد تمت هذه الثياب الى أجسام أصحابها بصلة ، كأنها ملقاة عليها ، غريبة ، غير مستقرة ، وغير متصلة بها • واحتدامات هذه الأجسام قد همدت لحظة ، والهواء يدخل من الأفق الصـحراوى المنتهى الى البحـر ، وينفذ فى زهومة الكثافة الانسانية فى القطار ، فيكملها ويعطيها معنى غير واضح •

خففت سرعة القطار وتغايرت أنغام دقاته وهـو يصطفق بالشبكات الحديدية من القضبان ويمر تحت علامات متباينة فى أعمدة السيمافور ، والبيوت تجرى الى جانبيه • وفى العربة نشاط فجائى والقفف تنزل من على الرفوف ، والحقائب والملاحف والمراتب واللفائف المربوطة فى الخيش ، والمرأة الريفية ترفع طفلها الى كتفها فيستـأنف صراخه وتطلب من الأفنـدى الرث المنهوك أن ينزل لها القفص والقفة يافندى وحياة النبى ، فينشط وهو ينزل الأحمال الثقيلة ويترنح تحتها وهو يكاد يقع فيلتصق بالمرأة ، عن غير عمد ، فى مجهوده ،

ويطيب له هذا الالتصاق لحظة من زمن ، والعسكرى يشد حزامه ويتنخم فى منديله الأحمر الباهت ويضع طربوشه على الطاقية الميرى العبك • والناس يقومون ويتزحزحون ويفتحون الشبابيك ويقفون استعدادا للنزول وعلى شفاههم ابتسامات متعبة ، ويلغطون مع بعضهم البعض فى شيء كأنه فرح طفلى بالوصول •

أخذ القطار يبطىء أخيرا وهو يدخل المحطة المنيرة ، ويصفر فجأة تحت السقوف الزجاجية المرتفعة فى دوى مظفر ، ويقرقع ويصلصل وهو يقف فى فخامة ، كجواد أصيل يرفع رأسه عند الوقوف ، وتقاطرت جماعات الشيالين بأرديتهم الزرقاء وأحزمتهم الجلدية العريضة المتينة ، يمدون أيديهم الى النوافذ ويتلقفون رزقهم من القفف والشنط ، وصغار الصبية خلفهم يتزاحمون على الأفندية والسيدات ويشدون حقائبهم : شيال ، شيال ، والناس يسرعون فى الأضواء اللامعة • وأصداء القطارات تتردد فى المحطة كأصوات تتنادى فى رنين مثير •

وهو ينزل الى الرصيف ويستعيد مقدرة ساقيه على المشى بعد الخدر الطويل ، ويجد أمامه من بعيد ركاب البولمان والدرجة الأولى فى أناقتهم الملونة وحقائبهم

الجديدة الرشيقة يسرعون خارجين ، وخلفهم يهرول الجمع المختلط من الانسانية الصغرى المضطربة بين الأولاد الصاحين من نومهم يتعلقون بآبائهم وأقربائهم ، وهو يحس المدينة خارج المحطة بشوارعها الهادئة الخالية تقريبا ، مستريحة آمنة ، مضيافة ٠

اتخذ طريقه الى سلم النفق الأرضى للخروج بعيدا عن الزحمة على الباب الضيق ، أو هكذا علل لنفسه سلوكه ، وان كان قد دار بذهنه ، من بعيد ، أن النفق لايفضى الى الباب ، بل الى رصيف آخر ٠ لكنه لم يصغ لهذا الصوت الصغير البعيد ٠

ونشق على السلالم العريضة ريحا باردة أرضية ، من النفق المنير الخالى ، والبلاط الأبيض يلمع على حائطى السلم ، مصقولا ينزلق عليه النور كما ينزلق ماء خفيف رائق ٠ وهو اذ ينزل وحده على الدرجات العريضة يحس أنه يدخل على عالم آخر هادىء ، تتجاوب به أصداء بعيدة متطاولة فى الفراغ الأجوف ، وتتراشق الجدران الملساء بهذه الأضواء ترسلها الواحدة منها الى الأخرى اذ ترتد عن سطوحها الناعمة ، عبر مسافات خاوية ٠ وهو يحس سعادة غريبة توسع من صدره ، لأنه وحده

فى هذا العالم السفلى المضىء المحدد الجوانب ، المنسرح تحت الأرض فى مستوى آخر ٠

وفجأة امتلأ عليه هذا العالم ، فى فراغه ٠ وأحس شيئا وراءه ، خطوة خفيفة مسترقة ، نغمة ، نفحة هواء ، لايدرى ٠ ولكن هناك حضورا يتربص به من خلفه ، لاشك ، شيئا يرقبه ، كأنه يرصده بعينيه الخفيتين ، وينتظر حتى يوقع به ، حتى يطبق عليه ٠ وأحس قدميه تتجمدان تحته ، ونظره ثابت موجه إلى الأمام ، وهو لايجرؤ على النظر الى خلفه ، بل لايستطيع ٠ ينزل السلالم ببطء ، ويشعر بهذا الغريب يسوده من أعلى السلم ، وراءه ٠ وهو يريد أن يتحقق من هذا الذى يثقب ظهره ببصره ، ولايستطيع ، بل لايجد أدنى قوة على رد بصره الى الخلف ٠ والسلم خلفه خاو عريض مرتفع صاعد الى أعلى ، تنزل منه رياح الخوف ٠ وهو موقن بأنه مراقب ، بأنه واقع فى قبضة بصر ذى نوايا ، ولايستطيع أن يخرج من هذه الشبكة غير المرئية ٠

واستدار فجأة اذ وصل الى أرض النفق ، وداراه الحائط ، ودخل فى النفق الطويل الممتد ٠ وأحس أمنا

وروحا ، اذ أفلت من هذه العين الواقعة عليه ، تنفذ الى كيانه من الخلف ، فى تصميم غرضها الذى لايحيد ٠

والمصابيح الكهربية القوية تملأ الممر بنور ساطع على الأرض السوداء ، والحيطان تقوم على جانبيه ببلاطها الأبيض الناعم ، صقيلة لزجة ، لا يلصق بها شىء ٠

وأخذ يحث خطاه ، وقد استشعر حريته من هذه النية التى كانت تحدق به ، وأحس انفساحا أمامه فى النفق المنير الطويل الواسع الجنبات المنفتح عن سلالم جانبية متعاقبة كثيرة ٠

وأخذت عيناه بالقرب من نهايةالنفق ، تحتمصباح كهربى ، شيئا مختلطا متلاصقا ، كائنا فيه من البشر شىء ، لولا أنه أكثر من كائن بشرى ٠ تسقط عليه من المصباح حزمة مخروطة ساطعة من نور لايرحم ، وقد اختلطت فيه الأذرع بالأكتاف ، تحيط ببعضها البعض ، وضاعت فيها رأسان ، فى امتزاج غامض المعالم ، بين كتفين ملتصقتين ، واختفت العيون فى حمى ظلام داخلى خاص مسدود على نفسه ، تحت عين مفتوحة من المصباح الكهربى المثبت فوقهما ، ينصب منها نور صلب ثابت الحدقة ، وقد جمدت الهدوم الرثة المضطربة ، وسكن

كل شيء ، سكون مرعى من العشب النـاعم الرقيق به هياكل ونصب عريقـة ، تعاقبت عليها عواطف حارة متربصة ، وليال صافية من الوحشـة ، ولا نهـاية من سماوات الظهر الخالية ٠

وقد أوقعه هذا الكائن فى فتنة لا زمن فيها ، وهو يتجه اليه كالمأخوذ ، كأنه يطيع مصيره فى هذا النفق الساطع تحت الأرض تتجاوب فيه أصـداء ليست من العالم وان كانت توحى بمعناه الخفى ٠

وترن خطواته في فراغ النفق ، وهذا الشيء الذى يلتصق بالحائط الأبيض اللزج يتحدد وتتضح معالمه ٠

ولكنه لم يستطع أن يحـول بصره عنهما ، هـذه الطفلة وشيال نحيـل ضئيل عنيد الوجـه ، ومازالت بيدها المرمية على ظهره أوراق يانصيب قديمة يجمعها مشبك حديدى صدىء ، وثيابها السوداء الباهتة الخلقة تتجمع فى طيات مضطربة تحجرت كأنها من تمثال أثرى قديم مصقول الحجر ، يقف فى نشوة غائبة ٠ ويدها مرمية بلا حياة على قميصه الكاكى المشعث القديم ، على ظهر جاف انحنت عظامه كأنما نضب منه ماء الحيـاة ، يتحدى الجفـاف فى تضحية حانية ٠ وهما يلتصـقان ببلاط الجدار الأبيض ، كأنهما علقتان جافتان لاتصلان

آبـدا الى الدم الذى تبحثان عنــه · ولاشىء يعنيهما ، فكأنه لم يمر بهما ، والرؤوس مختلطة المعالم ، مدفونة فى رائحة الشعر الملبد الكثيف بين قماش الهدوم القديمة المتراكبة الرقع فى جمود منسى ، لايهتم بأحد ولايعنى به أحد ، ويسطع عليه نور وحشى لا ادراك فيه ·

وارتقى درجات السلم الى رصيف المحطة ، وفى جوفه فراغ متداعى الجنبات ، والأرصفة خاوية تمتد بينها القضــبان آتية من أبعــاد سحيقة ، فى خطوطها الرفيعة المتجــاورة المتشــابكة ، بين تيــه من الأعمدة والاشارات · والقطارات فى الباحة تحت سماء الليل الباهت ، ساكتة صامتة مظلمة ، كحشرات ميتة بيضاء مغبرة البياض منسية ، والقطارات ملتصقة بالأرصفة، عليها تراب الليــل تحت السقف الزجاجى المســود من الهباب ، والمحطة كلها ساكتة نائمة ، وقد هدأت فيهــا الحركة هدوءا غريبا ، ساعاتها تحدق اليه بعقاربها التى توقفت ، والأسوار الحديدية القصيرة تحيط به ، وصوت حشرة ليلية يتردد صغيرا من أحواض الزهر الغامضة فى الليل ، تحت السور الحجرى القديم ، وجــرس الترام يرن بعيدا من شارع المحطة فى الخارج ، كأنه يســير

وحده بلا ركاب فى شوارع مدينة أقفرت من كل ساكنيها ٠

وأحس نفسه محبوسا ، مخنوقا ، مضيقا عليه ٠

يجب أن يفلت اذن ، يجب أن يخرج ، يجب أن ينطلق من بين هذه القضبان ، يجب أن ينتزع نفسه من تحت هذا السقف الزجاجى ، ومن نظرات هذه الساعات الواقفة ، يجب أن يخلص نفسه ، أن يخرج من الباب ٠

واندفع يجرى بالرغم منه ، لايملك نفسه ، صغيرا فى هذا الفراغ الليلى ، نحو باب الرصيف ٠

وجابهه على الباب الصغير ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، من عمال المحطة جالسين ينظرون اليه فى هدوء متربص ، يسدون عليه المخرج ينتظرون منه تذكرة السفر ٠ فلن يخرج الا ومعه التذكرة ٠

وهبط قلبه فى حفرة لا قرار لها ، وقد تيقن دفعة واحدة أن ليس لديه هذه التذكرة ٠ لن يخرج اذن ، لن يستطيع الخلاص ٠ فليس لديه تذكرة ٠ وهذه الوجوه الخشنة الغليظة القريبة تحدق اليه بعيونها المدورة الجاحظة ، وغضونها الجافة السمراء ، وكلهم لم يحلقوا ذقونهم هذه الشائكة ٠ هذه الوجوه لايهمها من هو ،

ولاتعرفه ولايعنيها شيء الا أن تنال التذكرة • وحللهم الرسمية السوداء ــ ولعلها زرقاء قاتمة ــ تصطف عليها أزرار نحاسية كابية ، كأنها صفوف أخرى من العيون المعدنية تنظر اليه ، وتنتظر •

وقفل راجعا يجرى ، يجرى كأن حيـاته كلها فى خطر ، كل لحظة يقضيها الآن فى المحطة تزيد من هول جريمته ، تثبت ادانته ، وتقرب لحظة الحكم عليه ، لن يغتفر له ، لن يغتفر له أن ليس لديه تذكرة • يجب أن يهرب ، يجب أن يفلت ، الآن •

وهو يجرى كما لم يجر أبدا فى حياته ، والمحطة واسعة فسيحة خاوية ، ليس فيها شيء عـداه ، يحاول الافلات بنفسه ، والأرصفة تمتد تحت قدميه ، كأنها تتخلق وتتمدد خاصة له ، كأنها طريق لم يوجد الا لأنه يجرى عليه ، بل هى توجد من لحظـة الى لحظة ، تحت قدميه • وفى كل اتجاه يندفع اليه يجد نفسه على نفس الرصيف الضيق ، ونفس القضـبان تحت الرصيف ، ونفس الأرصفة الأخرى تحاذيه ، أينما اتجه ، تتمدد حواليه • واذ يقترب من باب الدرجة الأولى ، وقد بدا له من بعيد خاليا ، يجـد أمامه نفس الوجـوه ، نفس العيون تحدق اليه ، تنتظره ، فى غير اهتمام كبير ، ولكن

في تصميم ، لن يخرج أبدا الا اذا قدم التذكرة ، أبدا .
وليس معه تذكرة .

وهذه الحمى من الجرى لاتنتهى ، وقدماه المندفعتان أبدا الى الأمام ، تحملانه مرة أخرى الى رصيف الدرجة الأولى ، وهو يتعثر ، ولكنه يطير فى جريه ، كأن هذا الحجر الذى يكاد يتعثر به قد تطاير تحت قدميه فجأة ، ولم يعد فيه عائق ما ، كأنه قد اخترقه دون عناء . ويصل أخيرا ينهج ، ويمسك بالسور الحديدى القصير ، وعيناه معلقتان بتلك الوجوه على الباب ، ويتعلق بحاجزه الرقيق المهتز ، يتعلق به كأنه لن يفلته قط ، فى عنف واصرار ، ويداه قد تشبثتا بالحديد الهزيل ، واندمجتا فيه ، وأصبحتا قطعة منه لاتنفصل عنه . وهو يحدق الى ساحة المحطة الخارجية ، لكنه لن يستطيع أن يتجاوز هذا السور ، وهذه الوجوه قد اتجهت اليه . صامتة فاهمة تنظر اليه من غضونها الخشنة ، بذقون غير حليقة كامدة الزرقة ، شائكة .

وأحس القطار يصفر وقد وصل من رحلة بعيدة ، والأنوار فرحة بهيجة قد غمرت المحطة كلها ، والساعات تدور ، والناس يتدافعون ويتزاحمون فى انفعال الوصول ، وهو يتعلق بيد أمه ينزل من القطار فى

زحمة الناس ، ويرفع اليها وجهه وقد تعب من رحلته ، وهاجه وأسعده انتهاؤها . وأبنية المحطة الكبيرة عالية تتجاوب بطنين الكلام والضحكات وصفير القطار وقلقلة العجلات ، ويسمع صيحات الشيالين وجريهم بين الناس في الزحمة ، وأبواق التاكسيات تملأ الساحة الخارجية الفسيحة بلجاجة ندائها ، والمناطير تتقارب وتتزاحم وتقطع الطريق أمام بعضها البعض ، والساحة الممتلئة بالناس الخارجين تسبح في الضوء الباهر المريح بعد شحوب القطار .

وتلفت خلفه فجأة ، وقد تقبض حلقه من المفاجأة، والخوف . لقد ضاع ، تاه . وهو لايجد أمه الى جانبه . لقد فقدها في الزحمة . والناس يخرجون متتابعين ، سيل لاينقطع من الناس الغرباء . وهو وحيد صغير : لايعرف الطريق الى البيت . لايعرف الشارع . لن يصل أبدا الى البيت . لن يجد أمه ولا أخواته .

ورجع جاريا يتخبط في سيقان الناس المندفعين الى الخارج ، ويتفلت من بينهم . وقد أخرسته المفاجأة ولم يستطع أن يصرخ . وهو يريد أن ينادى . أن يزعق . أن يجده أحد . أن يجد أحدا . لكن أحدا لايصغى اليه . أحدا لايعرفه . وهو لايعرف أحدا . وقد

ضاعت منه أمه • فقدها • ولن يعرف الطريق أبدا • سيتوه الى الأبد فى هذه المدينة الرهيبة الغامضة التى توجد خارج المحطة • سيتوه بين الترام والعربات والسيارات والناس • ستتخبط به الشوارع الطويلة المخيفة التى لايعرف أسماءها • ستتوالى عليه جدران البيوت • كلها غريبة • كلها صامتة • كلها مجهولة • ولن يعرف بيته أبدا •

وكم هو ضئيل فى زحمة كل هؤلاء الناس ؛ صغير • تائه •

وأحس العرق السخن يغطى وجهه ، ويد الخوف تمتد الى داخل صدره وتقبض على قلبه ، والضياع يحدق بنفسه الطفلة • وقد فقد كل شيء •

وهو يجرى متخبطا بالناس لايرى شيئا من خلال الدموع السخنة التى تملأ عينيه • وهو لايعرف ان كان يصرخ فعلا فانه لايسمع شيئا • لكنه يحس نفسه يصرخ مناديا أمه • ويضيع صوته فى دبدبة الأرجل التى لاتنتهى ، متتابعة خارجة من المحطة ، ليس بينها أحد يتعرف عليه • يحس نفسه يصرخ بملء روحه المتطلبة حبها المفقود ، يدعو يدا تمتد اليه بالأمن والألفة ،

يصرخ مناديا من وحشة الضياع المقفر الذى يحيط به فى امتدادات معتمة لا آخر لها . وينهج من الجرى والرهبة والبحث عن الخلاص . يصرخ ولايعرف هل يسمع صرخته أحد ، بين كل هؤلاء الناس . يجرى فى وحشة الضياع . لايفتأ ينادى .

(٢)

كانت دقات القطار الرتيبة قد أتخمت نفسه • كل شي قد انحصر الآن فى هذه العربة التى تهدر وتهتز • أموج ضجيج القطار الآلية تصطدم وتتقلب فى ايقاع رتيب محسوب تحكمه قوة غير عقلية • دفقات من كتل الصوت الصلبة ترتطم بأجسام الصخور الناعمة الرملية • والعربة المكتظة بالناس محصورة بين ضربات الحديد المتشابكة تعجنها وتغوص فى لحمها وتدفعها دون أن تهن ، فى هدير الصدمات المتقاطعة المتراوحة ، أبدا الى الامام •

تململ فى الزحمة ، وضغط براحة يده المبسوطة على زجاج النافذة المغسول بماء آثار تراب جاف وذرات رمل بيضاء مغبرة فى الأركان • وقاومه الزجاج ،

لاينزلق في مجراه الخشن الصدىء ، ثم آفلت منه فجأة ينزل ، ووقع ، سكين مثلومة تهوى الى قاع قلبه فى خبطة مكتومة • واندفع الهواء الحار ، وصفا سطح السماء المعدنية التى تطبق على الأفق ، ودار القطار آمامه فى انحناءة ضيقة ، جلجلة عجلاته ثرثرة دؤوب مختلطة الجوار ، مصممة ، لاتنقطع ، فى الصمت الخارجى ، على قضبان هشة رقيقة ممدودة كالاسلاك ، فوق الجسر المرتفع • أثر جرح متورم على خد الصحراء الجاف •

استدار ، يتعثر فى السبت المملوء المقبب المغطى بملاءة سرير غير نظيفة مربوطة بحبل غسيل مشعث ، وخوص السبت يحز فى ساقيه اللتين لاتستقيمان من ضيق المكان • وعندما آسقط جسمه ، محشورا ، ليجلس ، كان جاره قد استراح قليلا فى جلسته ، وأتاح لعظامه العجوز أن تنفرد قليلا تحت جلبابه الابيض الفضفاض الذى يسف طرفه تراب أرضية العربة ، فلم يكد يستطيع آن ينزلق على آلواح خشب مقعدة حتى أوشكت كتفه آن تحتك بالوجه المظمى الشيخ الذى تهدل جلده فى طيات مستسلمة ، ولكن عنيدة ، وصلبة •

ـ خد راحتك يابنى . لامؤاخذة آدى انت شايف ، نستحمل بعض ساعة زمن .

كانت العينان الترابيتان المحفورتان مثبتتين عليه، ابرتين طويلتين ، مغروزتين فى عسريه النيىء الخام ، تأتى من ورائهما عينان أخريان ، كأنهما هما مرة أخرى ، من وجه حفيد الشيخ الذى يلتصق به ، فى كره ، على خشب المقعد ، هو حفيده بلاشك : خطوط الوجه نفسها ، فجة ، بريئة ، لم تقع عليها بعد صدمات تلين من بدائيتها الأولية أو تقسيها ، ولكن هاتين العينين فيهما رفض ، لا مبالاة ، أو استهتار . والولد قد اتسخت فانلته المقورة القصيرة الكمين ، وأمسك بحذائه ، من غير شراب ، فى يده ، ووضع رجليه الهزيلتين ، احداهما تحت الأخرى ، على خشب المقعد ، قائمتى طائر «أيبيس» مرميتين بعيدا عن الماء ، فى لباسه الطويل البفتة الذى يصل الى الركبتين . هذه ملابس الرياضة فى مدرسته ، وزينته فى السفر والفسحة والعيد والمناسبات ؟

أحس العرق الخفيف على وجهه يسفعه هواء الغروب الذى يهبط من السماء على الصحراء الخالية .

فى صدره الحجر المشع الساطع ، نجمه الصلب

الشـفاف ، يقطع الظلمة فى داخله بألف سـكين باردة كالبلسم • فى بؤرته المتقدة مركز ثقـل الكون ، سر التوازن والعقل • حوله مدار الحلقة المتوهجة التى تغنى فيها موسيقى فلكية •

ووحل ذهنه فى حسـابات الحفلة ، دون أن ينتبه لتغير مـراكز الثقل فى وعيـه ، واجـراءات العقد ، ومصاريف علب الملبس ، وارسال آخر بطاقات الدعوة، وترتيبات العشاء والسهرة •

ويدها الرخصة السمراء الطويلة الأصابع عصفور وديع ، ودقيق ، وسخن ، يحس رجفات نبضه بالخوف ، يكاد يكون عاريا ، فى يده •

الصبح استلم الدبلتين الذهب من الجواهرجى ، وبارك له الرجل بابتسامة زيتية غائبة •

كان منقـوشا عليهما التاريخ • غـدا يبدأ دوران الكون بعد جمود وقفة لا تاريخ لها •

من على البعـد مراوح الآبار تدور على أبراجهـا المخروطية العالية الرقيقة الاسلاك ، تشق لنفسها دوائر فى الزرقة الصـدئة • وتحتهـا بيوت من حجر أبيض مكسورة الجدران ، وخيام الاعراب الواطئة مطبقة على

الارض ، قاتمة بقــذارة عتيقة ، ممزقة مرتوقة بألف رتق ، وشجيرات التين القميئة الناصلة الترابية تتناثر فى أرض صــفراء كابية مضلعة بأحجار غــير منتظمة ورمل متصلب ٠

وعندما استدار القطار من جديد ، تشبث ثلاثة أو أربعة جنــود ، ينامون على أرفف العفش العلوية ، بالحــافة الخشبية ، بحــركة غير مقصــودة فى نومهم ، اسندوا رؤوسهم الحليقة الى أيديهم المكومة ، وأحذيتهم السوداء الضخمة ،عليها طبقة رمل باهتة ،تكاد تصطدم بسقف العربة ، بين القفف والحقائب واللفف والصرر والسلال ٠ المصابيح فى السقف عيون حافظة ، زرقاء متورمة منطفئة ، تسـيل نورها الشـحيح على النباتات الانسانية المصوحة ، تحت جفــاف الرمل الكابى ، فى يبس مشتل ساخن معدنى يصطفق بدق مثابر عنيد ٠

ارتفع ، فوق ضجة العجــلات التى لاتهدأ ، صراخ طفل ، محرق لاينقطع ، من المقعد المواجــه ٠ والمرأة لاتنى تردد بصوت آلى ، متعب ، كأنها لاتلقى بالا لما تقول ولا تعلق عليه أملا ولا تنتظر نتيجة : طب بس ياواد اسكت بقى طب بس ياواد اسكت بقى ، بملابسها السوداء الضــافية ، النــازلة حتى حــذائها الرجالى ،

وشعرها المغسول الاسود تحت المدورة الزرقاء ، ووجهها النحيل الصافى ، وهى تنظر اليه ، تقيسه وتزنه وتبلو معدنه ، برغبة حادة مباشرة ، بلا استعطاف ولا غواية، فى داخل خرافة خاصة بها لاتحقيق لها .

ومازال الافندى أبو جاكتة وجلابية ، حتى فى نور المغرب المتهافت الخابى ، يحسب ويضرب ويجمع ويطرح ، فى مذكرته الصغيرة ، ويبل طرف القلم الكوببا لسانه ، بحركة محتاطة تكاد تكون مرفهة متشامخة ، ويتمتم بأرقام محدودة العدد ولكن لانهاية لها فيما يبدو ، لاشأن له بأحد ولا بشىء فى كابوسه الضيق الخاص المحسوب .

والست المترهلة اللحيم ، أم فستان مشجر وطرحة مقموطة على جبهتها المدورة العرقانة ، تمص حبوب اليوسفندى بشفتين مطبقتين شرهتين ، وتلقى بالقشرة الي الأرض وعلى اللفف والسلال ، وتقذف بالبذور من فمها الباهت المسدود ، فيقع متناثرا على ملابس الناس وأرجلهم وعلى الشنط والمراتب المدورة المحزومة بالحبال والدوبارة .

من ورائه والى جانبيه وحواليه الوجوه التى خدرتها ضجة السفر ، والعيون المطاردة الهاربة الى

كهوف محاجرها ، والافواه الفـاغرة تتثاءب بلا خجل وتنطبق ، والعظام الحـادة المرهفة المفـاصل ، واللحم المنكفىء على طياته تحت الجـلاليب والعمم والشـيلان والطـواقى والقمصان الامـريكانى المخططة والملونة والبنطلونات الرمادى والكاكى المتهدلة ورائحة الحصار والرمال الجافة ووحشة مغيب الشمس · وهو غارق فى هذا الموج منهم ، ليس طحلبا بل جـذوره ضـاربة فى صخرهم ، لا انتزاع لها ·

هى ساعة زمن ونصل · أبدا ، مازال أمامنا سفر لاينتهى ·

عندما أفلتت عينـاه من أسر العـربة التى تغص بحياتها الكثيفة المتخثرة كان القطار قد دخل الى حيث دفنت الشمس نفسها وراء امتدادات الملح الجاف الفضى، والقضبان أمامه تشق الفـراغ : خيطين معدنيين على صفحة مياه قليلة الغور ، بها أمواج صغيرة متلاحقة هى رصـاص بارد ذائب يترقرق الهـواء قليلا فى قـوامه الثقيل · وينبسـط المـاء ، بعيدا الى الجانبين ، تحت عجلات العربات الحـديدية المندفعة فى صخبها المصمت المتلاطم يدق نفسه بلا هوادة · أحراش البوص الكثيفة

تغوص شيئا فشيئا فى الطين القريب تحت طبقة الماء المعدنى الراكد المتعفن ، وتهب عليه الرائحة ٠

رائحة التحلل النباتى العتيق الزخم ، عضـوية ، فاسدة ، عطنة ، خمت بها أنفاسه ، ترفضها وتنشقها رغما عنك ، تأتى من تحت جلد الطحلب الأخضر المجعد، جلد امرأة عجوز متصابية ، مدهون بزيت زنخ ، تلبدت طياته فوق سيولة المـاء القليلة تنكسر طبقته هنا ، هنا ، وهنـاك ، فيلوح تحتها المـاء السـاكن والطين الرخراخ ، ثم تتجمع ، تحت جدار العربة المنطلقة ، فى دغلات ملتفة شرسة ضاغطة من الخضرة القاتمة الزلقة الملمس ٠ والرائحة تعنف به ، وتفوح فى سطوع عفنها الذى لايطـاق ، من تحت عجينة الطين المشـبعة بنضح الدسم ، من تحلل المخلفات العضـوية ، طـوال آزمان سحيقة ٠ تضرب فيها الشمس ويتخللها الماء وينصب فيها لحـم النبات الأخضر يمـوت على مهل فى قبـوره المائية المفتوحة ، وتتراكم جثثه الفاسدة واحدة فوق الأخـرى وتتكدس ، مكشـوفة بذيئـة ، تنفث عطنهـا الكثيف بلا نهاية ، من تحت مرآة مائية مغضنة الأسارير تعكس صخر السماء البرونزية ٠

ـــ يوه ٠٠ ماتقفلوا الشباك ده ياخواتى !

هذه المرأة الأم كأنهـا قطة بعينيها الحادتين اللتين تعرفان ألا وفاء لشهوتها أبدا ، ألا اخاء لابنها قط .

وضحك الشـيخ عن فم ككهف لحمى قاتم الحمرة ، وهو يهز ذراعه الضاوية فى الكم الأبيض الفضفاض .

ـ معها حج يابنى .. يالطيف !

ووقف مرة أخرى ، يقبض على الحـافة الخشـبية السوداء من دسامة ديمة جفت وتصلبت وتركتها أيد كثيرة ناضحة فى شـهوة القبض والتصرف ، ويجهد أن يرفع زجاج النافذة من مخبئه فيستعصى عليه ، أمكلف هو برعاية الفتحة التى ينصب منها العالم الشرس على سكان هذه العزبة ؟ من كلفه ؟ ولماذا ؟

ومن وراء الزجاج المسـدود بدا له ظـل القطار بعرباته القليلة ، وقـد أضـاءت مصابيحه الزرقاء ، ينعكس غائرا ، مهتز الانوار ، فى عمق المياه التى لم يعد لها فى العتمة غور مستبين ، وقوارب الصـيادين الرفيعة المستدقة الاطراف ، مهجورة ، بالية ، خشبها مفكك عارى الألياف ، مائلة وراقدة على الطين القريب بين رقرقة طبقة الماء النحيلة المتخثرة بالفساد . وفى آخر مجد نور المغيب أخذت تتوالى ، تحت عينيه المجهدتين ،

نبتات ورد النيــل الخضراء اليانعــة ، تحت القضــبان الحديدية ، وسط موجة واحدة رحراح من المياه الممتدة . والنبتات الكثة تلمع غضة ، زيتية ، ملفوفة ، ساطعة بنور دسم مشع كثيف ، وحشية بصمت ، تستمد حياتها الضارية من العفن المتخثر . كانت العربة مغلقة على زرقة أنوارها المتهافتة ، والمساء يزحف من الخــارج ، نمــرا بلا صــوت ، فى رائحتــه بقيــة عطن متراخ مستريح .

عيناها السوداوان بئر ماء حلوة بلا قرار ، لايعرف سرها . ترتفعان اليه من ضجيج دقات الآلات الكاتبة ورنين التليفونات وصخب المــكاتب الملهــوف السريع وحفيف الأقدام والأوراق فى ممرات الشركة ومسالكها المفتوحة ومنصــاتها الرخامية اللامعــة وحــواجزها الزجاجية ، بينما هو فى صحرائه الفسيحة المغلقة عليه، شعرها جدائل نخلة سامقة ناحلة الرشاقة ناعمة الجذع، وفى صــدره الماسة البــاردة تومض بنارها المحبوسة داخلها ، أبدا ، الحجر الرقيق يسطع باستمرار فى نواة ليله . غدا لن تنطفىء شمس الماسة .

ومرة أخرى عاد الى الجلوس فى مقعده الذى زحمه الشيخ ، وقــد اتجهت عيناه بصمت جــامد الى المرأة

أمامه ، وصراخ ابنهـا يأتى ، محـرقا مايزال ، يملأ ضجيج العربة ، ولكن مكتوما ، صادرا من بين جدران جلدية مبطنة ، يحس اهتزازها فى داخله .

وتجمد فى جلسته ، لحظة ليست من الزمن ، وثبتت عيناه الى ساقى الولد الناحلتين فى فم يمضغ رغيف ذرة مبلولا ، القدمان الصـغيرتان بما عليهمـا من تراب الطريق ، تغيبان ، وتنطويان ، ويدها تمتـد اليه من جديد ، والصرخة نفسها مازالت محبـوسة ، والرأس الصغير ينطوى ويغيب فى الظلام ، لقمة وراء لقمة . للعيش المرحـرح المبلول صـوت تكسر عظـام الجمجمة والضلوع ، تنطبق عليها شفتان جافتان جائعتان ، وقد انحسر ثوبها الاسود عن فخذ سمراء ممصوصة ، فاجرة ، تبدو للعينين كأنها سـخنة الملمس ، فى رقـة عظمها الحادة ، لاينطفىء جوعها ، ومازالت تكرر فى صوت آلى لا أمل فيه : طب بس ياواد ، اسكت بقى ، طب بس ، والولد عيناه لاتفهمان ، والوجبـة البذيئة لاتفرغ ، مازال الولد على فخذها العريانة يصرخ صرخته المحرقة المتجددة ، فى طبقة واحدة لاتتغير ، منهوشا ممضـوغا بأسنان حانية ، لا مبالية فى حنانها ، بينما البقال ، أو لعله القومسيونجى ، يحط حساباته المتصلة فى النوتة

الصغيرة ، ويتمتم ، بشفتان متحركتين لاتتوقفان ، بأرقام لا آخر لها ، والست المليئة أم طرحة مقموطة قد غاصت عيناها الصغيرتان فى عجين وجهها الباهت المتخمر وانطبقت شفتاها فى خط رفيع مصمم وان كان لا أسنان وراءه •

مد يده فى حركة كأنما تند على الرغم منه ، كأنما يهم بأن يوقف هذا الذى يدور أمامه أو أن يشارك فى اقترافه ، ولا يباليه أحد : طحن هـذه الوجبة الداعرة الحنون ، والمحرمة والمحتومة مع ذلك • ولم تمتد يده ، ولم يتوقف شىء •

الناس يتململون فى حركة الاستعداد للوصول ، ويقف البعض ويشقون طريقهم بصعوبة فى العربة التى تغمرها العتمة العكرة بنور مزرق شاحب ، وتثقلها رواسب الليل القادم • والجنود ينزلون من على أرفف العفش فتغوص الأحذية السوداء الضخمة وسط لحم القفف وعظام الشنط الهشة اليابسة ، وترتفع قاماتهم الكاكى الطويلة الناحلة ، فى الزحمة المضطربة العتمة، حتى السقف • والعربة مندفعة الى الامام فى دقاتها الحديدية التى أخذت ايقاعا آخر ، أبطأ ، وهى ترتطم بمياه الليل الساجية الثابتة القوام •

ومن وراء الزجاج تعاقبت آحراش البوص الأخيرة، الداكنة الزرقة ، ومرتفعات الرمل فى وسط الماء عليها عربات نقل بعيـدة مقلوبة ، وبيوت صـغيرة من حجر أبيض مظلم ، ثم اختفت رقرقة الأمواج ، وانفسحت الأرض ، وارتفع جسر رملى عليه حرس الاشجار التى ترقب القطار يمر بينها بألف عين مهتزة الاهداب وألف ذراع متهاوية متأرجحة ، وجاءت أعمـدة السـيمافور العالية المسـحوبة المتتالية ، تصطك ذراعها الواحـدة الصلبة لتسمح للقطار بالمرور ، وتبرق عينها الكهربائية الواحدة بلونها الاخضر ، وتتشابك القضبان الحديدية وتتعرج ، وتنشعب ، وفى العـربة جـو فرح وقلق ، بانفكاك الحصار وانقطاع عـلاقة اضطرارية ، والأم ترفع ابنها الى كتفها وترفع السبت بيـدها الأخرى ، والجد يقيم عظامه القوية العجوز وحفيده يلبس حذاءه من غير شراب ويتسلل فى لدونة وراء جده ، والبقال ـ أو القومسيونجى ـ يتشهد ويضع مذكرته فى جيب جاكتته الداخلى ، أما هو فقد أنزل حقيبة شركة الطيران القماشية الصغيرة وعليها الحروف اللاتينية البيضاء ، ووقف فى الزحمة ينتظر ٠ وأنوار المحطة تتخايل لهم ثم تهجم عليهم ، واذا بهم فى وسـط الدقات المحتضرة

العذبة الأخيرة ، والقطار يصفر ، مستنفدا ، تحت السقف الزجاجي العالى ، وتتردد أصداء الوصول فى المحطة الفسيحة الصدر ٠

الطريق غامض أمامه ، ولكنه مفتوح ٠

عندما نزل من العربة كان سيل المسافرين قد انحسر وتشربته البلد ، ووجد نفسه على الرصيف الخارجى ، تحت سماء الليل ٠ والقطار قد وقف ، وغاضت منه حيويته وانطلاقته ، انكمش وجف ، قشرة مفرغة هناك ، تحت السقف الزجاجى تهب عليه أنفاس الليل ، والأرصفة المتوازية ، فى خلاء المحطة المبهم ، متعاقبة واحدا بعد الآخر ، تنتهى بانحدارات مائلة نحو الزلط والحصى والرمل وبرك السولار السوداء اللامعة الخبيثة ، وعلى القضبان ، بين الأرصفة ، عربات نقل البضائع الحديدية الفارغة ، مسطحة مكشوفة ، ملقية بأذرعتها وأطرافها الناحلة الاسطوانية الى الأرض ، وتحت الانوار الخافتة كشك بيع الصحف مسدود مغلق يغطيه نصف اعلان سينما قديم مقطوع ، وبوفيه المحطة بعيد جدا فى أول الرصيف عند باب الخروج ، معزول ، يسقط فيه نور أصفر باهت على مقاعد وموائد مصفوفة بانتظام ، خاوية تماما ، عقيمة ٠ ومكاتب المعاون

والناظر والبوليس والتليفون ، بأبوابها المتجاورة المفتوحة ، كلها عيون معتمة ، على زجاجها قضبان معدنية متقاطعة قائمة من بعيد . وقد جلس أمامها في نصف العتمة ، عسكرى ضخم منتفخ في بدلته الصفراء وأشرطته العريضة الداكنة الحمرة على كمه ، أسند بندقيته على الكرسى ، وأدخل ذراعه تحت حمالتها ، محنيا رأسه على صدره الذى يهبط ويرتفع بثقل .

الطريق مفتوح . ينزل من آخر الرصيف الى أرض فناء المحطة ، ويعبر القضبان الى اليسار ، ويمر بين أحواض الزروع والأزهار والشجيرات المدورة تحت السور الحجرى الأبيض ، فاذا نفذ من كسر في السور خرج مباشرة الى الشارع الطويل المهجور الهادىء ، بجانب المحطة . دقيقتين ويكون في شارع الرصافة ومنه الى البيت ، بدلا من اللفة الطويلة من باب الخروج . دقيقتين ويخلص .

وارتفعت يده الى جيبه الداخلى الى جانب صدره ، ثم توقفت لحظة ، وقد سطع الرعب في نفسه ، وأنار العالم كله بنور وحشى خاطف ، ثم انطفأ فجأة .

تجمد في وقفته على آخر الرصيف ، ووضع الحقيبة

على الأرض ، وامتدت يداه في حركة سريعة تبحثان فى جيوبه جميعا ، بلهفة ،وقد بدأ الجنون يزحف ويستأثر . لا يرد ، بيقين خفى لايريد أن يعترف به ، بيأس كامل ومنكور . لن يجده . يعرف . ضاع . لا . لا . . فى الحقيبة ؟ كيف يمكن ان يكون فيها ؟ لا . . وانحنى ، مع ذلك ، وقد غمر وجهه وصدره عــرق بارد ، عيناه نافذتان معتمتان من الصدمة ، والخوف ، ومضض القلق الذى لا شفاء منه ، ويده تجوس فى الحقيبة . لاشىء . . لاشىء . البيجاما ، عدة الحــلاقة ، معجون الأســنان ، الفوطة ، الفرشة ، الشبشب ، غيار . الكتاب . هذا كل شىء . ولكن الخــاتم . الخاتم . فقده . ضــاع منه . فقد .

.

كانت قضبان السكة الحديد تمتد ، بين الأرصفة ، وتخرج الى الفنــاء الخارجى ، متشابكة ، متجــاورة ، متقاطعة ، لامعة فى عتمة الليل بلمعة رصاصية فتية ، غضــة وقاسية ، مدورة فى صــلابتها ، اكتســبت قوة مصقولة مشحونة بطــاقة كامنة من اقتران العجــلات الضخمة معهــا ، ودورانهــا عليها ، وازدواجها بها ، والخطوط الحــديدية الملتصقة بالارض ، الذاهبة على

وجهها الى أبعاد سحيقة تخـرج بها من الزمن أيضا ، تشتبك بتراب الارض وتدفن نفسهـا فيه ، فى عناق أخطبوطى محكم لا افلات من قبضة حبه ٠

لا ، يجب أن يجده ، لابـد أن يعثر عليه ٠ بذرة حياته نفسها فى قلب الحجر الشفاف المشع ، من غيرها ثقب فى قلبه لايمتلىء أبدا ، وفقد لا عوض له ٠

وانطلق يجرى ،مندفعا فى سورة من العمى الباهر، لعله مازال هناك ، وقع منه عندما قام يفتح الشباك ، أو يغلقه ، انحشر بين المقعد وحائط العـربة ، لعـل العجوز وجده وأخفاه ، أو المرأة سرقته ، أو داس عليه الجنود وهشمته الأحذية السوداء الثقيلة ، أحالته فتاتا من تراب أبيض كالملح الخشن الجـارح الزوايا ، على أرض العربة ، بين قشر اليوسفندى ومصاصة القصب ٠ لا ، لا ، مازال هناك ، أخطأته العيون والأيدى والأحذية، مازالت صخرته الدقيقة تشع فى العتمة بوهجها البرىء النقى النقى ، تنير الكون كله من مكمنها ، غير مرئية ، بين الحديد والخشب الأسود الكابى وعليه أن يجرى ، الآن ، قبل أن يفوت الأوان ، يلحق بالقطار قبـل أن يرجع للمخزن أو يعود الى محطة القيام ٠ وهو ينهج ، اذ يقطع المحطة الليلية الخالية ، وقدماه تطيران به مع

دقات قلبه الشرسة التى تمسك بكيانه ، تعجنه وتهرسه بضربات مطارق حـديدية متشـابكة • واندفع يعبر القضبان ، ويطير الحصى الدقيق والزلط الأبيض تحت قدميه ، ويثب فوق البرك الصغيرة السوداء ، بها حلقات وموجات زيتية قاتمة الاخضرار ، من الشحم والزفت المترسب بين القضبان وتحتها • وها هو ذا يجرى الى جوار قطار طويل ، طويل ، لاينتهى ، عرباته فارغة ، موحشة ، متعاقبة ، جدرانه هامدة ، شاحبة • بناء منيع يوشك أن ينهدم فى أية لحظة ، ولكنه متماسك لا ثغرة فيه ، لاينال ، ولا ينتهى ، ليس هذا قطاره ، يريد أن يدور حوله ، ولا يصل الى نهايته ، يريد أن يبلغ قطاره الذى غادره منذ لحظة واحدة ، كأنها حدثت مع ذلك فى عالم آخر انطوى تاريخه منذ أمد سحيق ، ولكن القطارات كلها قد اشتبهت عليه ، بصمتها ، وتماثلها ، واتصالها الذى لاينقطع ، لا مبالية •

دار أخيرا حول آخر عربة من قطار واحـد مشتبك العربات ، ووثب يصعد الرصيف فى اندفاعة لا جهد فيها ، وخارقة ، وقلبه يملأ المحطة النائمة كلها بضربات عناد لاينهزم ، وانحـدر مرة اخرى ، كأنما تحمله ايد خفيـة ، يعبر آخر القضبان الى قطـاره فى الرصيف

التالى ، هناك ، أمام عينيه ، فى متنـــاول يديه ، وقد انشعبت فى عينيه بروق متلاحقـــة فى لهفة حــارة · مازال قطاره واقفا حيث كان ، لحظة واحدة الآن ، لحظة واحدة ويندفع الى عربته ، ويجد حجر خلاصه ، وصخرة نوره ·

اصطدمت قدماه وساقاه ، فى شبه العتمة ، تحت سماء الليل ، بشىء طرى طيع ، على القضبان · وتعثر ، ووقع الى الأمام دفعة واحدة ·

وجد نفسه راقدا على الأرض ، على وجهه ، منكفئا على القضبان الحديدية الطويلة ، ذراعاه ممدودتان أمامه على الزلط والحصى وحبات الرمل الكبيرة ، ينشق رائحتها الترابية الخشـــنة ، ويحس لذع كشط حـــاد فى جانب وجهه الأيمن ، وتحت ذقنه ، أطراف أصابعه مكدومة ، وقد أذهلته السقطة المفاجئة وشلت وعيه ، لم يعد يحس الا العرق الملح يتقطر على عينيه وقد تضخمت أمامهما أحجار الزلط الصلبة الباهتة المعـــوجة القوام ، كأنه لايدرى بعد ماذا حدث · وعندما عاد اليه الوعى ، بعد خطفة زمن لاتكاد يحسب لها حساب ، وجد نفسه فى هذا العالم السفلى ، بين حائطين شاهقين من أرصـــفة المحطة ، على جانبيه ، وهو فى النفق المفتوح بينهما ،

كل شيء حاد ، وقاطع وشديد الوضوح • ولكنه لم يعرفه من قبل قط • كانت القضبان تحت عينيه ، قوية ويانعة الرسوخ في ضلعها الواحد المستدير الممتد الى مالانهاية، والزلط محبب ، مدور ، مكسر الحواف ، وحبات الرمل خشنة ناتئة كالحجر المصحون • لكن وجهه ـ مع ذلك ـ مدفون في طيات شيء كاللحم البارد الرخص ، مألوف وحميم وبشع يهز قلبه بقشعريرة مثلوجة ، لايراه ، وراحتا يديه تقعان على عضلات جسم مبتورة ومكتنزة كأنها تنبض ، في برودة ممتصة ، وتصد الحس تلصق به وتشله وتميته •

انبثقت في جسمه كله ، من الرعب ، شرارة كهربية واحدة خاطفة ، ووجـد نفسـه واقفا ، ومس الصعقة الكهربية المتوتر مازالت أصداؤه تتردد في أطرافه كلها • وقد وثب الى الخلف ، يحدق الى فراغ الأرض ، والقضبان الصامتة المصقولة النظيفة ، والأرصفة ، تبدو له كلها متينة ، عملية ، راسية •

لم يصدق • كان وحده في المحطة الفارغة ، تحت خواء سماء صدئة ، وأعمدة السيمافور منطفئة لاتشير الى شيء ، والسقف الزجاجي الدافيء بعيد •

حس الاشلاء المبتورة المرمية على القضبان مازال فى وجهه ويديه ، حس اللحم الانسانى المحظور والمحبوب معا ، البارد ، عضلات بطون وأطراف سـيقان مدورة وأذرع بضة متشابكة ، باردة ، باردة ، هامدة ، لكن فيها مع ذلك روع لايخطئه القلب أبدا ، روع التلاصق بأجساد ميتة ، بأجساد المحارم الميتة •

لم يحـدث • لم يحـدث شىء من هـذا كله • غير معقول • ماذا أصابه ؟ لايعقل أن الصدمة قد أصابته بهذا • الانكار مع ذلك سطحى لا جدوى فيه •

فى عمق يقينه ، فى غور بعيد مثقوب فى دخيلته صوت صغير لا اسكات له : نعم نعم • حدث •

القطار مازال واقفا ، باهتا ، نوافذه ، وأبوابه فاغرة سوداء ، على الرصيف التـالى ، قريبا جـدا ، ولا سبيل اليه •

نفض عن نفسه هـذا الكابوس غير المعقول ، كما ينفض حيوان بـرى عن جلده قطرات ماء غـريب • وأوشك أن يسخر من نفسه •

نعم ، سقطت ، هذا كل شىء • ماخيل الى أنه حدث

فى لحظــة الســقوط الخاطفــة ، محض وهم من القلق واللهفة والفقدان ٠

قدماه تصطدمان باللحم الطيع الممدد على القضبان، والرعشة تثلجه مرة أخرى ٠ وهــو يخطو الى الخلف ، ويتقدم ، ويقع ، ويقوم ، مرة بعد مرة بلا انتهاء ، في عناد لا عقل فيه ، فى تصميم لم يعد يملك فيه من أمره شيئا ٠ يطيع ، فى عمى ، حافزا لايرد ولا جهد ولا ارادة في طاعته ٠ يرتطم وجهه ويداه وصــدره ، مرة بعد مرة ، بلا انتهاء ، بسور لا عبــور منه ، من الاشــلاء النظيفة النقية الشاحبة ، كأنه يراها فى العتمة ٠ لم تعد هناك الا هــذه الدورة المتكررة أبدا من الاتصــال بهذه الجثث والانفصال عنهــا ، جثث أخواته ، جثته ، تتخايل له تحت السماء الفسيحة ، مقطعة ولكنها بريئة، انثالت عنها الدماء وانحسرت تماما ، وتركتها صافية بيضاء ، هرستها عجــلات القطارات الذاهبــة الآيبة ، شقتها طولا وعرضا على الرمل والحصي ، ومضت عنها ٠ نضت عنها كل أدران الحياة وآخـلاطها ، مكومة ، فى نسق غريب ، ونظام ، سيقان مبتورة ٠ حادة البتر ٠ رؤوس مجزوزة كأنها سقطت من كلابات الخطاطيف ، عيونها مازالت تترقرق فيها المياه ، يقظة ، أوصال

متراكمة بعضــها فوق البعض مرتاحة فى نوم الزمالة الأخيرة ، محددة الجوانب والأضلاع ، انصبت منها ، منذ زمن بعيد ، كل لزوجة الدماء ولوثاتها ، وبقيت طاهرة مصفاة ، ناعمة ولينة ولكن متوفزة ومتماسكة ، تكاد ترتجف بالنبض ، بقايا أجسام غضة من غير سوء ، كأن فيهــا ، مازالت ، روحا محبــوسة لاتريم ، لاتنهزم ، أنفــاسا تتردد فى عمق خفى لاينــال ، تنتظر • فيها ، مازالت ، حياة قاسية باردة ، لاتطالب بشىء ، لاتريد شيئا ، لاتقول شيئا ، لكنها صارمة عبوس • لاتبرح مقامهــا المثلوج • ســتظل تعمره أبد الدهــر ، تحت العجلات ، وفى خواء الليل على الســواء ، متجهمة فى اسارها الذى لاينفك ، بادانة لا برء منها ، ولاتقويم لهــا •

(٣)

أرصـــفة السكة الحديد تمتــــد ، متينة ومظلمة ، متجاورة بلا نهاية • عريضة وخالية •

والسماء المعتمة فوقى شاسعة ومنفصلة . الليل الذى فيها لا ينجاب • والنجوم ثابتة ، صغيرة ، لن تذوب فى أى فجر •

أسأل نفسى لماذا هذا الخواء فى هذا العالم الذى ليس لى غيره ولا أعرف كيف أخرج منـــــه • لا أعرف أين الباب • أعرف أنه لابد أن يكون هناك ، ولكننى لا أعرف طريقا اليه ، أى طريق •

كأننى خرجت من تحت ســـــقف المحطة الزجـــاجى العالى ، وكأن أمى وأخواتى البنات الأصغر منى قد خلت

منهن المحطة ، وتركنني وحدى · أتلفت حوالي ، تحت ضغط اللهفة المحكوم الهادىء ، ولا أرى سور المحطة من وراء الأرصفة المتكررة، رصيفا بعد رصيف، على يمينى وعلى شمالى ، بلا آخر · القضبان الحديدية بينها ساقطة على الأرض ، مدورة ، ملتوية ومستقيمة ، متشابكة ومتوازية ، عيناى تعرفان مدى صلابتها التى لا يمكن أن تنكسر ، شديدة اللمعان من فرط احتكاك العجلات الدوارة بها ليل نهار ، الأقراص الحديدية الهائلة التى لا تقضم منها جذاذة ولا تصنع شرخا ، بل تزيدها عنادا.

والقطارات الضخمة سوداء ، مربوطة بلا جدوى بقاطراتها الهامدة ، لا أعرف من فيها ·

يجب على أن أجد الشباك الذى أقطع منه تذكرتى · شبابيك التذاكر حوالي من وراء قضبانها الوثيقة المتقاربة ، منيرة ولكن مغلقة ، ليس فيها وجه ، ليس فيها أمل · والوقت يفوت ، والساعات الكبيرة المدورة الوجوه ممسوحة ليس فيها عقارب ، ولا أجد من أسأله

كنت أعرف أن الباب هناك تحت ممر واسع ومرتفع ودائرى العقد والهواء فيه نظيف ، فى وسط جدار المحطة الداخلى السامق العريض الأحجار ، وانه مغلق الضلفتين ، ومصنوع من الحديد الرقيق المشغول ،

أطرافه المدببة على شكل السهام المرشـوقة فى أعلاه ، مطلية بالذهب ، ولا يفتح الا عنـــدما يأتى الملك فى قطاره الأبيض ذى الشرفات المزركشة. ويفرش البساط الأحمر ويمتد تحت قدميه من عتبة القطـار على طول الرصيف وعبر الباب والممر العريض المنير حتى الساحة الخارجية ، وتمتلىء المحطة بالجنود والزهور فى صفوف وثيقة ومتلاصقة لا ينفذ منها شىء • ولا يقف عمـال الأبواب على رؤوس الأرصـــفة عنـد الحاجز الحديدى المنخفض ، لا يثقبـون التذاكر بمقراضـــهم الحديدى الشرير الشـكل ولا يقتضونها منك عنـــد الخروج ، فلا يمكن أن تدخل أو تخرج الآن • مرة واحدة لمحته من بعيد ، الملك ، من بين ظهور الجنود والناس الواقفين بجلابيبهم وطرابيشـــهم وعمائمهم وشيلانهم وربطات العنق الرفيعة الضـــيقة الخناق ، ورأيت اهتزاز ذيل « السموكنج » الطويل الذى يلبسه على جسمه الثقيل ، غريبا على ساقيه المتلئتين ، وجانبا من وجهه المحتقن المزدحم بالـدم ، وشاربه القـــائم بذؤابتين رفيعتين مشدودتين « بالكوزماتيك » المشمع • كان أبى يقبض على يدى بقوة ، ونحن نخرج فى الزحام ، وأشم الرائحة الحريفة من معطفه وسجائره ورجولته ، وهو يمسـك

بعصاه الرفيعة الســوداء الحديدية الكعب ذات المقبض الأبيض المحفور بزخرفة عرفت عندما كبرت أنها اسمه « قلته فلتس » من العـــاج المخروم · كان فى ميــدان المحطة قره قول من تلاميذ المدرسة الحربيـــة بالشريط الأحمر الذى يشق البنطلون الداكن الضيق المســتقيم حتى تحت الحــذاء الاستيك اللميع ، وبلوك من الجيش البريطانى ، وموسيقى القرب الاســكتلندية بأصواتها الثاقبة المملة ، والجونلات ذات الطيات المتعددة ، وقطرات العرق تتفصد ببطء على الوجوه المحمرة ولا يمسحونها . والموسيقى النحاســـية تضرب بقرقعات بهيجة وايقاع واحد لا يتغير · وجندى قصـــير يحمل طبـــلا ضخما على بطنه الكبير يدق عليه بانتظام دون توقف ، كأنه وحده فى العالم ·

جنود بلوك النظام ينزلون جريا من عربات الجيش المربعة العمودية الجوانب ، على سلالم قصيرة مثبتة فى مؤخرة السيارات ، ويطاردوننا ، بقمصـــــانهم الطويلة المهدلة وسراويلهم التى تنزل تحت الركبة بقليـــــل ، وسيقانهم السوداء مربوطة بلفائف « الألشين » الكاكى الرمادية التى ترتفع الى ما تحت الركبة بقليل · ونحن نجرى فى ميدان المحطة الفســـيح بين عربات الترام

الصفراء اللون التى توقفت ، واحدة بعد الأخرى ، على خطوطها ، والناس ينظرون منها بفضول • وكان تلاميذ المرقسية ورأس التين قد انضموا الينا • وكنت أهتف ، ولا أسمع صوتى : تحيا فلسطين • يسقط وعد بلفور • الاستقلال التام • • حملت العلم يا عبد الحكم .. الشمس حارة فى دمائنا ونحن نجرى • والشتائم البذيئة من العساكر تلاحقنا ، والعصى القصيرة فى أيديهم • وكانت الشتائم موجعة جدا • والغضب يلف العالم ، ولا ينجاب أبدا •

كان الجدار الخارجى الجانبى للمحطة ، أمام باب الدرجة الأولى ، يرتفع حتى الشارع العلوى تتخطر عليه عربات الحنطور التى تبدو صغيرة ، وأجراسها دقيقة مصلصلة الصوت ، فوانيسها النحاسية الأمامية بزجاجها المصقول المكعب السطوح ، كأنه معمول من ماس كثيف ونقى ، تحبس شعلات صغيرة صفراء محمرة تتقد فى النهار • وقع حوافر الحصان على بازلت الطريق له موسيقى رشيقة • وكنت أنظر الى اعلانات « شركة الادرياتيك وتريستا للسفريات والملاحة » ، والباخرة تمخر مياه الحلم المتموجة بزرقة فاتحة الصبغة ، دون أن تتحرك ، مستقيمة الخطوط وهفهافة الريح فى وقت

معا ، ثابتة فى سرعتها الساكنة التى لا زمن فيهـــا ، ونوافذها ، فى البطن المســـطح ، بصفحته المستوية ، فتحات كاملة الاستدارة ومسدودة بلون الزجاج المعتم الشفافية ٠

كنت أرقب « الدبـور » الذى صـــنعته من ورق كراسات المدرسة ، مدببا أبيض حـاد المقـــدمة ، أشد طيرانه بالخيط الطائر فى السماء ، بحزم ورفق ، فوق رؤوس النخل ، وأنا على سطح بيتنا فى غيط العنب ٠ وقلت لنفسى بفرح اننى عندما أكبر جدا ، وأصبح فى العشرين ، سوف أسافر فى بعثة ، كما سافر رفاعة رافع الطهطاوى ، الى مارســيليا ، وأركب البحر على باخرة شركة الادرياتيك وتريستا ، وأعرف فنون الحرية فى باريس كما لم يعرفها أحد فى مصر قط ٠ وكنت أعرف اننى لم أركب هذا البحر ، ولم أمخر عباب هذه الحرية ، وأن القلب الطفلى مازال يطفو فوق أحلامه القديمة وان كان الآن قد تصدع بشقوق رقيقة وقاتلة ٠

أنزل السلم العريض بدرجاته الحديدية المفتوحة ، كسلالم الحـــريق لأقدامى عليها رنين معـــدنى ٠ سياجه الدائرى يهبط معى الى دور سفلى فى المحطة معقـــدة المسالك ، خاويا أيضا ، متكرر الأرصـــفة ، أيضا ،

بلا نهاية . والسماء نفسها فوقى ، وفوق الأرصفة العلوية الأخرى ، منفصلة لا تزال ، لا يهب فيها النسيم .

وأجد أمامى المصعد الكبير الذى ينزلق على بابه الحديدى المصمت ، بهدوء وثقة فى مجراه المحفور ، ويصطك بالجدار المعدنى بصوت ثقيل نهائى . وفى الهبوط البطىء أحبس فى قلبى الروع الذى يريد أن ينفجر . هذا الباب لن ينفتح على قط . لن يسمع أحد صوتى عندما أنادى النجدة . لن ينجدنى العالم .

وتسكت حركة المصعد الفسيح ، وتمر ثانية واحدة ، كأنها لن تمر ، من الصمت التام . الباب مغلق ، لا ينبض .

ثم يرتعش الباب ببطء ، على الرغم منه ، وينزلق مفتوحا .

وأفلت منه كأنما خرجت من قبر ذى أصداء ، مضىء بمصباح كهربى مدور تتحلق به شبكة أسطوانية من الأسلاك الحديدية عليها سحابة ضعيفة الحركة من الهاموش .

وتمتد أمامى الأرصفة المتكررة المفتوحة مرة أخرى. وتزداد السماء وليلها الملتبس ابتعادا. الأدوار العلوية، دورا فوق دور ، مدكات شاهقة من الاسمنت مغلفة بأحجار البازلت اللامعة ٠

لا أريد الاستسلام للفزع الذى فى ساقى ، ولا أريد أن أجرى فى شوط لا أعرف له وجهة ولا نهاية ٠ أرفض اليقين الذى فى جسمى بأننى ضللت الى الأبد بين هذه الامتدادات الشاسعة من الأرصفة المتعاقبة والمتقاطعة والمتراكبة ، بين أسوار البازلت الشاهقة ، ترتفع عليها مصاعد البضاعة الهائلة وتسقط مغلقة الأبواب ٠

العناد ، كاليأس ، لا ينكسر ٠

صفارة القطار تنطلق فجأة فى الصمت المعتم الرحيب التى تقطعه مصابيح عالية صغيرة ٠ ويتردد لهذا الصوت الوحيد صدى أجوف الصدر ، يصطدم بالسقف الزجاجى المحدب البعيد ، قضبانه العلوية المتشابكة فى نسق هندسى رقيق التصميم ، تبدو مفصلاتها القوية العضل هشة وحساسة أمام عينى المرفوعتين ٠

والقطار يتخم نفسى ، أخيرا ، بدقاته الرتيبة ، مرة أخرى ، كأنها دائما هى المرة الأولى . وهو ينطلق في نور

الظهر القاسى ، بايقاعه المتراوح الذى يتضخم وينفجر فى خبطة مكتومة ثم يهبط • يتضخم ، ويمتلىء ويقرقع فى هدة مكبوحة ، ثم يخفت • هزيمه المتصل المتناوب الصدمات يصطفق فى داخلى ، دون هوادة ، فى عزم ليس له انقطاع •

أسأل نفسى السؤال الممزق ، وأنا صامت ، جامد الجوارح : أين يقف هذا القطار ؟ واذا وقف ، فكيف أعرف انها محطتى ؟

ايقاع دقات العجـــلات على القطار ، منتظمـــا ، لا يفرغ ، وطنين المحرك الملىء بالقوة لا يبالى شيئا ، هو صمت خاص •

الزجاج المحكم على السخونة الهفهـافة فى العـربة المكيفة الهواء يبدو منيعا ، لا يخترق •

وكأنما على الرغم منى ارتفعت يدى ، لا أملك لها ردا ، تبحث وتتلمس بلهفة مضـغوطة متطلبة • يدى تريد أن تجد مقبضا أمســك به ، مفتاحا أديره ، زرا كهربيا أضغط عليه ، حلقة معدنية أجذبهـا ، أريد أن أفتح الزجاج ، أنشق الهواء البارد الذى أراه يهز أشجار الغيطان وعيدان الذرة ، أعرف نسمته المتربة المحيية • لا ينالك •

جدار القطار المعدنى منبسطا وناعما ، ليس فيه أدنى خدش ولا نتوء ، لا يقطع سطحه المصمت شيء ٠ والستائر الكريتون الصـــفراء بلون المستردة الغامق تنسدل على جانبى الزجاج بريئة ، بيتية ، أحس فيها مع ذلك قصدا خبيئا، وهى مصنوعة بمكر وأناقة متكررة، كلها متطابقة ٠

ترتفع يدى مرة بعد مرة ، بارادة خاصة ، أكابد الحيرة التى لا تنقضى ٠ وأجاهد حتى لا تبدو على هذه المكابدة الوحيدة ، فأسترق النظر الى الركاب الصامتين ، كل منهم وحده أيضـــا ٠ حتى الأزواج والرفقـــاء ، متفارقين ٠ وأعرف أنهم يسترقون النظر ، فى أعينهم اتهام غير معلن ، مترصد ، هل ينتظرون اللحظة التى يفصحون فيهـــا عن شيء كالاثم قد اقترفته ، لا أعرف ما كنهــه ، لكنى أعرف أنه هنـــــاك ؟ وأفاجيء نفسى بالسخرية من نفسى : تظن نفسك من أصحاب الآثام ، وتظن ذلك بطولة مقلوبة على وجهها ، من غير شريك ؟ والشركة فى الاثم لا هى تبرئك ولا هى تمجدك ٠

وقلت لنفسى ليس بين هؤلاء الذين يركبون معى من يثير الاهتمام ٠

هذه المجموعة المعتادة من ركاب « الديزل » الدرجة الثانية المكيف : أواسط كبار الموظفين بعيونهم المتورمة وذقونهم المتهـــدلة اللحم وحقائبهم « السمسونايت » الأصلي والمقلدة التي تحمل أوراق الادارة أو الشركة أو تصميمات المشروعات المربحة للجميع ، وضباط الجيش الشبان ، والذين ليسوا شبانا جدا ، بملابسهم الكاكى المكوية وقد خلعوا الكاب ووضعوه على الرف العــلوى المزدحم بحقائب جديدة صغيرة ومتوســـطة وبأكياس النايلون المنبعجة بما فيهـــا ، والزوجات ـ أو غــير الزوجات ـ المنهكات جفت النيران الوجيزة التي عرفنها بسرعة ، مكحولات ومصقولات الخدود وشفاههن داكنة الاحمرار بالماكياج المستورد ، صدورهن المشدودة لم تعد لها جدوى ، والمقــاولون ، والسماسرة والتجار ورجال الوكالات وشركات التصـــدير وخصوصا الاســتيراد ، لا تخطئهم العين ، ملابسهم غالية ولكنها مازالت توحي بالجلباب الحرير والقفطان الشاهي والمعطف البلدى ، عيونهم صلبة ومعدنية . وقلت لنفسى لا ، لا يهمونني ، لست منهم . وأعرف أنني لا أختلف عنهم في شيء . ولعلهم يعرفون انني معهم . وقلت لنفسى لا ، لست منهم ، لست أنا . ثم قلت لنفسى ومع ذلك فأنت هنا ،

معهم ، فى قطار واحد ، وعربة مكيفة الهواء واحدة ، وسوف ينتهى القطار بنا جميعـــا الى محطة واحدة ٠ ويداى تحترقان فجأة برغبة لا جدوى منها فى أن أجد مفتاحا يشق انسداد هذا الزجاج المغلق على وعليهم ٠ ورأيت فأس الحريق الحمراء الصـــغيرة ، فى صندوق زجاجى مغلق باطار معدنى من الالومنيوم الثقيل ومعها تعليمات مطبوعة عن كيفية استخدامها عنـــد اندلاع النار ٠ أين رأيت هذه الفأس ؟

هل يمنعونى من النزول عنـــدما تأتى محطتى ؟ وما محطتى ؟ هل يعرفون اننى ليس معى تذكرة ، يعنى أنه لا مكان لى هنـــا ، فى حقيقـــة الأمر ؟ وهل هـــذا صحيح ؟ لا أذكر هل اشـــتريت تذكرة ، ولا أريد أن أبحث عنها الآن فى جيوبى ، فى المحفظة ، بين صفحات مذكرة الجيب ، لا أريد أن أثير شبهاتهم ، لا أريد أن أستعدى اتهامهم ، لا أريد أن أستفز هجومهم ، لســت أخافهم ، صحيح ، لكن ما الداعى لأنواع من سوء الفهم وتخبط المقاصد ؟ سأنتظر حتى يأتى المفتش وتنتهى المسألة ، اما أن أجد التذكرة أو أدفع الثمن مضاعفا ، والغرامة ، وبدل التكييف والدمغة والرسوم ٠ أم أن المفتشين يرفضون قبول الثمن ، ينتظرون حتى الوصول

الى أول محطة ، ويأخذون المسافر الذى اقتحم القطار الى مكتب الناظر ٠٠ لكى ٠٠ ما هى الكلمة ؟ لكى ٠٠ لكى ٠٠ يطوق ٠٠ نعم هــذه الكلمة ٠ يطــوق ، أو يحبس ٠٠ لا ٠٠ لا ٠٠ كان هــذا من زمــان ٠ فى طفولتى ٠ أليس كذلك ؟ لم يعد الأمر الآن على هــذا النحو ٠ لم هذا الفزع المستكن لا يريم ، بذرة أثرية قابلة للانفجار ، لا تريد أن تنفجر عن شجرتها السامة ، ولا تريد أن تموت ٠ غريب أن المفتش لم يجىء حتى الآن ٠ لابد أننا سافرنا ساعات وساعات ٠ هذا القطار مباشر صحيح ، لا يعرج على المحطات الوسطى ٠ الام يذهب ؟ ما المحطة التى يجب على أن أنزل فيها ؟ عندما تأتى سوف أتعرف عليها ٠ سوف أعرفها ســوف أعرف اسمها ٠ من شكل الأرصــفة ، وشــبابيك التذاكر ، والأبواب الجانبية، والسقف، سوف أعرفها، من نداءات الحمالين ، ممن ينتظرون ٠ يجب أن أعرفها ٠

كان القطار قد ارتفع فجــأة فوق جسره ، يتسنم طريقا له وحــده ٠ وهبطت الأشــجار تحتى ، ورأيت ذؤاباتها الكثيفة تنوس برشاقة غير انسانية موسيقية ، خبطات القطار قد ازدادت عمقا ، ولها صدى ، وهــو يشق السماء المحايدة المحجوزة وراء الزجاج المسدود ٠

حدائق البرتقال تمتد تحت الجسر ، تبـــدو نائمة
شجرها قصير ومدورة وخضرتها داكنة والحبات الصفراء
المخضرة مرشوقة فى الكثافة التى تنضم عليها ، بنهم ،
كأنها ملصقة هناك ، غير حقيقية ، فواكه الشمع التى
كنا نضعها فى فسحة بيتنا وأنا صغير ، خداعة لا تؤكل
ولا رائحـة لهـا • وعلى حـواف الجنـاين أشـجار الموز
القميئة ، مفلطحة الأجنحة ، عقيمـة ، تأكلت أطراف
ورقها العريض الذى يتهدل هش النسـيج • والطرق
تتشـعب ، تحت جسر السـكة الحـديد ، الى مفترقات
وممرات ضيقة بين الغيطان الصفراء المحشوشة الزرع ،
والبرك الصغيرة بمائها الاسود الراكد عليها وز قليل
يجرى فجأة مفزعا لا أسمع صوته ، تحت أسوار حجرية
تعلوها أسلاك حديدية مدببة ، تحيط بخرابات مهجورة
فيها طوب وكتل من الاسمنت ولافتات زرقاء واسـعة
تحمل بالحروف الانجليزية والعربية أســماء شركات
وبنوك ايرانية وسعودية مصرية مشتركة ونوايا مصانع
لأجهـزة التكييف وثلاجات للخضر والدواجن ومناطق
حرة للتصدير والتوريد ، وربوة مضـطربة الارتفاع
تأتى فجأة ، وعليها الشواهد ومكعبات القبور المحدبة
جديدة التلوين ، تحت شجرة الجميز العتيق •

خطفت تحت بصرى فجأة ، على حافة الترعة البطيئة الجريان، سيارة مرسيدس واقفة متنمرة، فاجرة اللمعان تحت ورق الموز المسطح الجاف ، وبالقرب منها نساء سمينات وجوههن كالخزف الأملس ، مشقوقة الأفواه والعيون ،يأكلن بتصميم وصمت من طواجن متعددة ، يجلسن على ملاءة سرير وردية اللون مفروشة على تراب الغيط ، وأيديهن لا تتوقف ، تحمل قطعا كبيرة من اللحم والخبز الملىء بالطبيخ الى الأفواه المصبوغة · وكانت أفخاذهن عارية وسمراء وكثيفة فى جلستهن على الأرض ، وأولادهن يتحلقون حول الطواجن وترامس الماء الكبيرة البطون · وبينهن فلاحات عجائز ، كأن أجسامهن خشبية ، بالطرح السوداء الجديدة . يقفن غير بعيد ، بلا حركة · اندفع القطار ، وارتفعت وجوه النساء الى ، الأفواه تتحرك ، والعيون جامدة من اللذة المكررة المعتادة ، واختفين وراء القطار ·

نافذة القطار المزدحم مفتوحة ، وأنا أقف بين الناس والقفف واللفف والربط والسلال الشائكة الخوص والحقائب الكزتون المقوى المصبوغ بلون الجلد ، أضع قدما واحدة على أرض القطار المهتز ، واستند بذراع أثقلها التعب والتوتر على مسند المقعد الخشبى

وراء رؤوس الفلاحين وأولاد البلد المتلاصقين باللبد والطواقى والطرابيش ، وقدمى الأخرى مرفوعة محشورة بين السيقان والشنط والكراكيب التى يكتظ بها ممر العربة . الرياح يجرى تحت القطار بمياهه الحمراء عفية العضلات ، أمواجها الصغيرة تسابق القطار وتتقلب عليها كتل صغيرة من الطين والقش والأعواد الخضراء . هواء العصر فى هذا اليوم من أواخر سبتمبر يهب على وجهى ، باردا وقويا ، من النافذة الخشبية المفتوحة ، ويدخل بنفث الدخان الدقيق الذى أحس ذراته السوداء على يدى وأعلى صدرى تحت القميص غير المكوى المفتوح من غير كرافته ، والجاكتة الصوف الجاهزة . الأشرعة البيضاء شامخة فوق أجسام المراكب المدببة الصدر ثابتة الجريان على مياه الترعة التى تبدو فجأة ضيقة ومزدحمة .

قرقعة القطار لا تتوقف ، والأفندى ، بجانبى ، يتحدث بثقة من تحت شاربه الكث ومن كرشه الكبير ، ويقول لفتى اسكندرانى أمامه ، ملوح الوجه وأزرق العينين ، باللاسة اللامعة واللباس الاسود الواسع المتهدل الطيات ، أن الحكومة عملت وزارة جديدة اسمها وزارة التموين ، وسوف تعطى الناس كوبونات للجاز ،

وبطاقات ، دفاتر صغيرة مخصوصة يعنى ، فيها أسماء العائلة وتصرف لهم السكر والزيت بها • وامرأة ممتلئة القوام فى ملاءتها التى تراخت على كتفها . وكشفت عن صدرها النازل من فتحة فستانها الواسعة ، مصمصت بفمها الشهوانى ورفعت حاجبيها المحفوفين ، قوسين رفيعين على عينيها اللامعتين من الالتصاق بأجسام الرجال ، تحت قمطة شعرها المحبوكة على جبهتها المدورة وسألت : كيف تترك الواحدة أسماء ضناها ، اسم الله عليهم، عند الحكومة والبقالين ومن يسوى ومن لايسوى؟ هذا لا يرضى ربنا ، حتى • ونظرت الى الولد الاسكندرانى العترة الى جانبها ، بطمع صريح. وتذكرت أمى • وكانت صحوة رجولتى الجديدة مذنبة • وكان جسمى كله مشدودا من الوقفة المتزعزعة والزحمة واليقظة فى الفجر وركوب الحمار مع آختى الصغيرتين وانتظار القطار الفرعى فى محطة كفر داود الذى يتوقف كل خمس دقائق ، ثم الانتظار فى محطة ايتاى البارود للحاق بقطار الاسكندرية • ولم نكن قد أكلنا الا القراقيش التى عملتها لنا جدتى باللبن الرايب والزبدة ، وأوصتنى على اخواتى ودعت لى بأن يكتب لى فى كل خطوة سلامة وأن يحوطنى ، بحق ابنه يسوع ،

ببركة الصليب فى كل مطرح أحط فيه رجلى ، وقبلتنى على خدى بشفتيها الجافتين • وشممت رائحة الحطب والخبيز من طرحتها السوداء وهى تضع حولى ذراعيها الصغيرتين •

أستند بجزء من ظهرى الى القفة الكبيرة التى وضعنا فيها الوزة المذبوحة المنتوفة الريش، والقراقيش، وصفيحة الزبدة التى سوف تسيحها أمى لتعمل منها السمنة والمورتة ، وأستند بجزء من جنبى الى حقيبتنا الكبيرة التى ربطنا فوقها ، بدوبارة غليظة ، لحافنا القديم • ولم يكن اللحاف نظيفا جدا ، كنا قد تغطينا به منذ كنا صغارا جدا ، أنا وأخواتي ، عاما بعد عام • والهواء يندفع من نافذة القطار فيفضح رائحة اللحاف - والفتاة التى تجلس أمامى ، ملتصقة جدا بأختى من ناحية ، وبالست العجوز المهدمة التى لابد أنها أمها ، أو خالتها ، من ناحية أخرى ، تحول وجهها عن الحقيبة كلما انحرف القطار فى طريقه فاشتد تيار الهواء • وأحس العرق الخفيف يخز وجهى بفتات دخان القطار الدقيق • وكان وجهها جميلا وسمرتها صافية وحية ، وعيناها حادتان متقلبتان بموج صغير فاتح الخضرة • وجسمها المزحوم يبدو لعينى قويا ومتوفزا ، مدور

البطن ، وكان صدرها كبيرا ومحبوكا ومثيرا • وتنظر
الى ، ولا أجرؤ على فهم ما تقول عيناها • وقلت لنفسى
هل هى تلميذة بالثانوى تعود للمدرسة ، مثلنا ؟ أو
بائعة فى صيدناوى ، مثلا ، أو هانو؟ وسرحت فى قصة
عن أنها تحب ولدا مثلها وانه يحبها ويشتاق اليها •
وقالت لى فجأة بصوت غاضب ألا أستطيع أن أزحزح
هذا من أمامها ؟ ألم يكن هناك مكان آخر أضعه فيه ؟
وأصابعها المكتنزة الدقيقةالأطراف بعيدة كأنها تخترق،
جارحة ، ربطة اللحاف التى يضطرها الزحام أن تضغط
بساقها عليه • فرددت عليها بصوت هادىء ومؤدب
ومثقف اننى متأسف ولكن الأمر لم يكن بيدى فقالت
بصوت حار وثاقب ان هذا غير ممكن وغير لائق حتى •
ووجدت نفسى أجيب بصوت مستثار ومستفز أنها ترى
بعينها هذه الزحمة وأنها لو تستطيع أن تجد طريقة
فلتتفضل بأن تقولها ، وقالت هذه الربطة هل يعنى من
نصيبها أن توضع أمامها ، وما هذه الربطة ؟ أهذا يصح
يعنى ؟ ولم أتنبه الى أن سؤالها كان سؤالا حميما ،
وكانت عيناها الآن مشتعلتين وكان صوتى الآن
عدوانيا ومهاجما وأنا أقول انه يجب أن نتحمل بعضنا
ساعة زمن على أقل تقدير واننى لست السبب فى قيام

الحرب وزحمة القطارات وأن المسألة ليســـت ما يليق وما لا يليق بل مسألة ظروف لا نتحكم فيها ، وضبطت نفسى أوشك أن أفلسف أخلاقيات زمن الحرب فســكت مرة واحدة وسكتت هى بعد أن تنبهت الى الناس حوالينا وكانوا ينظرون الينا ، وكانت الســيدة الملفــوفة التى تبدو فى عنفوان نضوجها المتــأخر قد مالت على الولد الاسكندرانى جارها ، تتــابع الخنــاقة ، ورفعت يدها تسوى مدورتها بسرعة على شعرها ، وانحدرت الملاءة السوداء على ذراعها العارية البيضاء المتمــوجة المياه ، وكان جانب ثديها الآن ملتصقا بكتف الفتى وبدا كأنه محبوس وممتلىء ٠ وعادت قرقعة القطار تتتابع وتدق ، مرتفعـــة مرة أخرى ، وتغرق همهمة الكلام ونداءات البياعين الذين يقفزون وينحشرون بين الركاب والقفف والحقائب ، يحملون على رؤوســهم مقاطف اليوسفندى الطازة العشرة بقرش ٠ واكتشفت فجأة وهى تنظر الى بعينيها الخضراوين ، فيهما غضب وفهم ، اننى متوتر وصلب جدا ، وان بطنها دمث وراسخ ، وصدرها يهتز بثقة ، مع هزات القطار الرتيبة ٠

٠

عندما ماتت أختى بالتيفويد فى آخر ذلك العــام تذكرت نظرتها الوديعة الى وهى بجانب هذه الفتاة ،

كأنها تغفر لى ، وتذكرت اننا لن نجد عربة حنطور تقبل أن تحملنا الى البيت من المحطة بثلاثة قروش وهى كل ما كان معى ، واننى حملت الحقيبة وتركت لها القفة الكبيرة وكانت ثقيلة عليها ، فرفعتها وحملتها فوق رأسها ، وهى ماتزال طفلة ، بالكاد فى الرابعة عشرة ، وكانت نحيلة وشديدة السمرة وشعرها مجعد وعيناها فيهما شجن لا أفهمه وهادئتان ، ومسحوبتان كحبات اللوز ، وصعيدية جدا ، وكانت أقربنا شبها بأبى . وبكيت عندما تذكرت كيف كانت تسير الى البيت بصبر وصعوبة ، أمام المقاهى والدكاكين المنيرة المزدحمة فى أول الليل ، وتقول أنها ثقيلة فأقول هانت وسنصل بعد دقائق ، وكانت دموعى صافية لأول مرة وعرفت أن البكاء لامعنى له وان الألم الذى يمزق القلب شيء لا وزن له ولا يجد شيئا عند أعز الناس الى القلب . وتعلمت شيئا آخر عن الوحدة . وأنا أبكى الآن ، بعد السنوات الطويلة ، بلا ضرورة أيضا . وكنت حزينا وأنا أفكر اننى سأجد أختى تنتظرنى على الشباك وسوف أرى وجهها الصعيدى الناعم السمرة وعينيها العميقتين الخجولتين بسوادهما الذى تخفيه عنى ، وانها ستقدم لى فنجان القهوة المضبوط الذى تعرف كيف تصنعه لى ،

لكى أسهر طول الليل أنهى كتاب تاريخ الحضارة وأرده غدا للمكتبة البلدية • وقلت لنفسى اننى لن أضربها على وجهها بعد الآن لأنها تقرأ رواية غرامية من روايات الجيب وسأقول لها ألا تسهر تنتظرنى حتى أعود بعد منتصف الليل وبعد أن ينام كل من فى البيت وتعد لى عشائى وتسألنى اذا كنت أريد فنجان القهوة المضبوط ، لا داعى أن تسهرى ، نامى أنت ، .سأعد لنفسى العشاء • وكنت أفكر أن الحزن ورقة القلب غريبة وقد فات أوانها من زمن بعيد ، وليس لها الآن أدنى أهمية •

كان زجاج النوافذ مصمتا والستائر الثابتة الكريتون الداكنة الصفرة تبدو كأنها ورق ديكور قديم وكركرة تكييف الهواء الجافة قد سكتت والناس صامتين يتحركون كأنهم مرغمون على النزول • ضباط الجيش من غير حماسة الآن ، والنساء اللاتى بهت الماكياج على عيونهن المرهقة الظالمة ، والمقاولين بعد غلظة الأكل والبيرة وحسابات المكاسب العقلية وغير العقلية راضين جدا ومثقلين بأجسامهم التى كأنها ماتت عنهم •

والقطارات المنطفئة قد توقفت أخيرا فى ساحة المحطة الداخلية التى تتوقد فيها مصابيح متناثرة على أعمدة عالية ، بقعا باهتة تسقط ضوءا قليلا على

القضبان الحديدية · وتعريشة نباتات طازجة الخضرة في النور المصنوع ، تتسلق جدران كشك خشبي مفتوح الباب ، ووراءها أوراق التين الشوكي العريضة الكثيفة الجسد ، أيديها ممدودة مدببة السنان ، خضرتها غضة وشرسة وتوشك أن تتفجر بدمائها · أكوام تراب الفحم عالية ولامعة السواد بجانب الخضرة · القطـــارات قد أفرغت من سكانها ، ونوافذها فوهات محترقة وعليهـــا سواد الدخان · والدبابات الفاتحة اللون في الليل يقظة ومعمورة ، خارج الســـور الحديدي الطويل ، مدافعها ثابتة تخترق الظلام ، مترصدة ·

طلقات الرصاص بعيدة ، تتجـــاوب متقطعة لها أصداء تتردد بين الشوارع التي انحسر عنها الناس ، فاتسعت وهي تشق قلب المدينة الصامتة · والبيوت خارج سور المحطـــة مرصوصة ومتطابقة ومســـدودة النوافذ، غارقة في الماء ، مظلمة كلها ، أعرف أنها مغلقة على نفسها ، حقل من أزهار عباد الشـــمس الحجرية في الليل طوت أوراقهـــا القديمة الصـــلبة على بذورها وتضامت أعمـــدتها الســـاقطة التيجان واقتربت بدون صوت من بعضها البعض فلم تترك بينها فسحة لاعتداء الليل ·

وقع خطواتى ثابت وواثق على الحجر وأنا أرتفع ، فى الظلمة ، على حافة بناء شاهق يقف على طرف جسر ترابى مرتفع ، وتحته المـــاء الراكد كأنه مرآة ساكنة السطح ، مدت عليه ألواح من الخشب تصل بين الرصيف وحائط البناء المتين الأحجار • أصعد السلالم الخارجية المنحوتة خارج البرج، من غير سياج، كتلا صغيرة ضيقة وعرة ، مرصوصة فوق بعضها البعض ، من حجر أبيض ثقيل الملمس تحت قدمى •

أرتقى السلالم الحجرية بعزم معقود وأساسى ، وأنا أرزح بالنشوة والغضب ، معلقا على حافة هذه السماء التى امتــلأت بجســد الليل • أعرف أننى لا أســتطيع النزول ، اننى لا يمكن أن أنزل الآن ، واننى أصعد الى هذا الوجه بسمرته الصافية ، وموج عينيه ، الى هذا الجسم الناعم الراسخ الذى سيبقى معى الى يوم موتى . وانه لا يمكن أن يفصل بينى وبينها شىء •

(٤)

كانت الشمس شتوية مغسولة ، وهواء البحر يأتى الى من فوق ربوة الرمل الجاف التى ترتفع مباشرة على جانب الرصيف الحجرى العالى فى المحطة . أقف وحدى فى المحطة الخلوية التى ليس فيها أحــد ، أحس الحجر الأبيض الهش فيه خيانة كامنة ، تحت قدمى ، والقضبان الحديدية تنساب فجأة بصمت بين الرصيفين القائمين ، يرتفع على جانبيهما صفان من الأعمدة الرقيقة تلتف حولها أغصان متلوية رفيعة الجسد من الحديد المشغول ، كأنما تعتصرها فى شبق مكتوم . أرى الأعمدة تصعد نحيلة ، ولامعة فى نور الصبح بلمعة منطفئة ، حتى تعلو عن الربوة الرملية وهى تحمل السقف الزجاجى المحدب المحمل على عوارض أفقية مسطحة بينها أعمدة

متينة قصيرة تترك فجوات للنور والهواء على شبكة العوارض · لوحات السقف الزجاجية تومض عليها الشمس وقد ضربت فيها عروق الحديد المستقيمة وشرايين متشرجة من دخان القطارات المتراوح السواد ·

هبة هواء تحمل ورقة صحيفة يابسة على القضبان، ترفعها وتتخبط بها فتتخشخش على الزلط بين الفلنكات الخشبية بمساميرها الغليظة الرؤوس ، بصوت مسموع ·

تتفرع القضبان بعد انتهاء الرصيف مباشرة الى شبكة واسعة متعرجة ومتلاقية ومتفارقة ومتواشجة تدور وتنحنى حتى تنتهى فى البعد الغامض ، تحت شمس بينة ، الى ركام من أحجار قديمة ، وأسياخ الحديد الصدىء وأكوام الفلنكات الباهتة الخشب ، وصهريج ماء فارغ مدور ومقلوب على جنبه متغضن الجدران امتلأ نصفه بالرمل والزلط ، وجدران أكشاك تقشر طلاؤها الأخضر العتيق ، ساقطة بين أجسام الصبار والتين الشوكى الغليظ الأقراص ·

كنت وحدى ، أنتظر القطار الذى تأخر كثيرا وأسأل نفسى بقلق فى هذا الخلاء : هل جاء وذهب ؟ ولم

أنتبه اليه ؟ كيف يمكن ؟ ولم أكن أعـرف مع ذلك الى أين سيمضى بى القطار ، اذا جاء ؟ مرسى مطروح ؟ أم أبو قير ؟ هل هذه محطة الضبعة أم العصـافرة أم عين الشوك ؟ عين الشوك ؟ أهذه محطة ؟ أين هى ؟ كأننى لم أعرفها أبدا ، وهى مع ذلك مألوفة أركب منهـا كل يوم .

نفح عطن خفيف جدا لايكاد يحس يسرى الى على مهل من الجانب المفتوح للمحطة ، عبر منحدرات رملية واسعة وهينة التحدر داكنة اللون قليلا من البلل . من ورائهـا أحس فقط ، ولا أرى ، مستنقعات الملاحـة والهيش المتكاثف فوق الماء الثقيل .

وفى وسط سهل الرمل الصلب العريض أرى ، من بعيد ، بيتا حجريا يبدو صغيرا ، وحـده ، له شـباك مغلق ، وعلى سطحه غسيل منشور ، ملاءات مصـفرة البياض وجـلاليب نسـائية ملونة ترفرف فى العراء بصوت اصطفاق القماش الخشن فى الهواء .

رفعت رأسى كأنما حفزنى شىء لاعج ومفاجىء ، فرأيت أختى لويزة تجرى بقدمين خفيفتين حافيتين ، كأنها ترقص على موسيقى واسعة الجناحين لا أسمعها ،

على طريق غير مرصوف ، فوق الربوة الرملية العالية ، وشعرها الوثير الفاتح اللون يطير في زرقة الهواء ، وفستانها الخفيف يهفهف حول ساقيها البيضاوين الممتلئتين ، المتحركتين في رقصتها بلا وزن ولا ثقل ، كأنها تسبح ، يحملها الهواء من غير أدنى مقاومة • وكنت أعرف أنها ماتت منذ سنين ، محروقة ، في المستشفى الفرنساوى في اسكندرية • وكنت أحمل في قلبي نظرتها الأخيرة قبل أن تموت ، وقد تمددت على فراش المستشفى ، بلا حراك الآن ، ضاوية ، جافة ، جلد ظهرها كله احترق وسقط ، ولحمها الموجوع مكشوف الأعصاب تحت الضمادات الكبيرة برائحتها النفاذة الحريفة ، وقد أنهكها عذاب الحرق والعلاج الطويل والتخدير المتصل فما عادت قادرة على الكلام • أمسكت بيدها وأحسستها تسلم يدها لى ، من غير حركة ، وفي عينيها المثقلتين المفتوحتين على سعتهما سؤال لا رد عليه، وعتاب نهائى •

وكان وجهها البيضاوى الممسوح مرفوعا الى فوق ، في رقصتها المتماوجة ، مضيئا بنور ناعم من سماء البحر القريب •

أخذت أجرى معها ، وأنا تحت ، أجرى بين القضبان

فى المحطة التى تتسع وتنحدر وتطبق على ، وسقفها أجده منخفضا وعريضا وبلا نهاية ، والقضبان تتلوى حوالى ، بين قدمى ، بتفريعاتها الخبيثة الشكل . وقد امتلأت المحطة فجأة بالناس المسرعين مسافرين وواصلين، والحمالين ، الذين يجرون أمامى وورائى أكاد أتعثر بهم . وأجد نفسى أمام حواجز حديدية مشبكة مغلقة من خلفها المراقبون يتربصون بى ، وفى أيديهم المقراض الحديدى الضخم البشع الحواف ، بلسانه المدور الحاد الذى أعرف أنه لو انطلق بضغطة من اليد من بين الفكين القابضين فسوف يثقب صفحة قلبى المثقلة بسنه القاتلة المدببة ، ثقبا واحدا ، يغوص حتى النهاية ، والصمت . وأكاد أصطدم بالمفتشين فى البدل الميرى الداكنة واقفين ، يعرفون ، وينتظرون ، ووجوه أخرى ، كثيرة كثيرة ، جامدة تماما ، غير حليقة ، تطل على من نوافذ القطارات الطويلة التى أجدها عن يمينى وعن يسارى ، فأجرى ، تحت ، فى وهدتى الحديدية المتعانقة الخطوط ، بلهف ومضض ، وأعرف أنه لا نجدة لى .

كنت أريد أن أصعد اليها قبل أن تختفى وراء ربوة الرمل بعد المحطة . أريد أن أتلمس طريقا الى الجسر اللدن الطرى الكتلة ، وأعرف بمجرد الرؤية أن

رمله الناعم سوف ينهار تحت قدمى لو استطعت أن أجد السكة اليه ، حتى لو استطعت أن أضع قدمى عليه ·

وكنت أتسلق المرتفع الرملى الآن ، قدماى لاتثبتان ، تنزلقان على الرمل الذى ينحدر فجأة تحت ثقلى · وأرى ، وأنا فوق ، الشارع الرملى الطويل ، غير مسفلت ، والبيوت عليه من الجانب الآخر منخفضة وحجرية بنافذة واحدة عريضة كبيوت المكس والدخيلة القديمة · وأعمدة النور المتلاحقة على رصيف واحد من الشارع مطفأة فى الغروب الذى يظلم سريعا · وفى الشارع ، عميقا تحت ، امرأة عجوز نحيفة الجسم جافة، بملابس سوداء متربة ، وعلى رأسها طرحة قديمة مشعثة ، وهى ترفع الى يدها ، ولا أفهم ماذا تريد · هل هى تطلب منى شيئا أم تعطينى ؟ ويفدحنى ويعذبنى أننى لاأعرف ، بينما أعلو فوق الرمل وأهوى · وفى غبش الغسق الناعم الملمس تنفتح النافذة الوحيدة فى بيت تحتى مباشرة ، من الناحية الأخرى عبر الشارع الخالى ، والنور من مصباح كهربى عار ينصب وراء وجه المرأة التى أعرفها وأحبها ، مدورا ، وخمريا ، وأسيل الوجنتين ، ولكنى لا أراه فهو معتم فى النور الذى ياتى

من خلفه ، ولا أرى لون عينيها ولكنى أعرف من زمن سحيق خضرتهما العميقة بلون الصبار الغض القديم ، وأحس نعومة جسمها وانسياب ثيابها ووهج النور على شعرها المغدودن الكث ٠ وأريد أن أناديها وأمد اليها ذراعى فأسقط على الرمل ٠وأحس نفسى أتدحرج عليه، وأهوى وعلى وجهى مس حبيباته الرقيقة أنشق رائحتها المصوحة ، وأنا أتشبث بيدى كلتيهما بالكتلة المتهاوية التى تفلت من أصابعى ٠ أثبت قدمى فلا أجد موطئا ، وأحتضن الرمل اللين فلا أجد موئلا ولا ما أضم ذراعى عليه ٠ وأعرف أننى مهما تمسكت به فسوف أنحدر وأنقلب ، وأهوى الى ما لا نهاية ولا قرار ٠

وأجد نفسى ، تحت ، على طـريق القضبان ، فى باحة هذه المحطـة الغامضة التى غصت الآن بقطارات تصل وتسافر تنهج وتنفث وتصفر صفيرا ثاقبا تتردد أصداؤه بين جنبات المحطة ٠ والنور الكهربى من الأعمدة العالية محصور وميكانيكى الوقع ٠ وثم طاقة مهدورة تنفثىء فجأة تحت عجلات القاطرة السوداء التى تنزلق بصمت وتمكن ، حتى تقف راسخة وعالية ٠ قطارات تقوم بانسياب بطىء هادىء ، تقلع بصدورها المدورة العريضة الى محطات لن أراها أبدا ٠ وقطارات خالية

معتمة ترجع على أعقابها فى مناورة حريصة لتدخل خطا متفرعا آخر ، عجلاتها تخبط فجأة اذ تصطدم بالتحويلة فى القضبان · أما أنا فأجرى مبتعدا عن القاطرة القادمة ، المداهمة ، متجهة نحوى باصرار · هل أنا أجرى من شىء أم أبحث عن شىء ؟ أم أنهما كلاهما ، مايدفعنى بلا هوادة الى هذا الجرى الثابت الخطى لاأحس له جهدا ولا عبئا ولايمكن أن يتوقف ؟ لاأعرف · لايهم · المهم هو هذا النداء الذى بلا صوت ، ما أنى أنشده ، وأنتظره ، ويشدنى ، فأجرى وأثب بخفة كأنما يرفعنى شىء ما ، فوق درجات حجرية صغيرة ، درجتين درجتين كل مرة ، فى آخر الرصيف ، وأدور الى الوراء بعيدا عن سماء الليل المفتوحة ، بعيدا عن أخطار القضبان التى لاأدرى أيها سوف يمر عليه القطار المهاجم · وأدخل مرة أخرى الى كن المحطة المسقوفة بالزجاج المعتم والحديد المغروز ، بين صفى الاعمدة الملفوفة الجسم ، فأجد فى وجهى مصعدا ضخما ليس له باب · ماآكاد أضع قدمى على أرضيته الخشبية العريضة حتى يصطفق له باب ذو مفصلات منزلقة تنفتح فجأة بعد انكماشها فى مخابئها ، وتنمدد ، فيوصد على المصعد الثقيل الذى يهبط ، بين أعمدته المكشوفة ، على أرصفة متعاقبة

أحدها تحت الآخر ، حتى يصطدم بالأرض · وينفتح الباب تلقائيا على مخزن شاسع معتم ورطب الأنفاس فى دور سـفلى ليس فيـه الا آكوام الأخشاب المرصـوصة الشاهقة الارتفاع ، نقية وميتة وعارية ·

أجرى مستريح الخطو ، وصدرى فسيح وهادىء ، الى فوهة منيرة ساطعة ، مشدودا اليها بدعوة لا غلاب لها ، فأدخل فى نفق واسع دائرى الجدران كأنه أنبوبة مبطنة ببلاطات الخزف الصينى تومض ببياضها الزلق ولاتنتهى ولاينتهى جـريى فيها ، حافيا ، أحس دفء الجـرانيت الأحمـر الخشن الوجـه تحت باطن قدمى · والضوء القاسى يهبط على ثم ينقطع ، ويسقط على من جديد ، حزمامتعاقبة لا رحمة فيها ، من مصابيح عريضة التدوير ومسطحة ومتقدة بوهج بارد ، تتلاحق فوقى الى ما لا نهاية · وهواء الانفاق المحمل برائحة خاصة يهب على وجهى الذى أحسه يتفصد برشح العرق ، دون أن أنهج ، وليس فى صدرى ضيق ولا غضب ، ولست خائفا ، ولا أطلب شـيئا ، كأننى فقط أؤدى واجبا ، ولن أصل أبدا الى شىء ·

وكأنما هذا هو ·

هذا هو حقـا قطـارى ٠ الذى ان ذهب فليس لى غيره ٠

قطارى يرتفع أمام وجهى عاليا ، راسخا ٠

لكنه يقف على الناحية الأخرى من الرصيف ، وأنا تحت بين القضـبان وفى يدى حقيبة صـغيرة ولكنهـا ثقيلة ٠

والعربة مرتفعة ، سلالمها الضيقة الحديدية يصعب ارتقاؤها من حيث أقف ٠ الكمسارى يطل على من الباب السميك المفتوح الى الداخل ٠ وجهه غير حليق ومظلم وهو ينحنى على ، يمد الى يده من غير مبالاة ٠ لم أسأل، ولم يقل شيئا ٠ أحاول أن أرفع يدى اليه ، أن أصـل بيدى الى قبضته ٠ يجب أن أصعد الى القطار ٠ هـذا القطار ، وحده ، دون غيره ، يحمل شيئا أو شخصا هو الأعز الى ، هـو الذى يعطى كل شىء معناه ٠ والجهـد الشاق لايكاد يحتمل ، وفى ذراعى ثقل لايطاق ، وأبذل كل جهـدى ، ويدى لاتصـل ، بينما القطار قد أخـذ يتحرك ٠ لاأستطيع الصـعود مهما حاولت ، والقطار يتحرك ببطء ٠ العجـلات الشريرة العـارية تدور على مهل ، ساكتة مصممة ، ثم تتسارع قليلا ، وأنا أجرى بجانبهـا تحت البـاب المفتوح ، يدى بالكاد تحت يـد

الكمسارى الممدودة التي ليس فيها كبير اهتمام على أى حال ، ولكنها ممدودة الى ، لا ألحق بها ، القطار أسرع منى ، يستجمع عزما يفوق عزمى ، ويفلت منى • ايقاع انطلاقه لاأدركه • يذهب عنى • أفقده • وضعت فى ساقى كل قواى ، جريا ، ممدود اليد ، مثقلا بحقيبتى الصغيرة ، وكأن قدمى مكبلتان وهما تخبطان الأرض ، الآن ، ترتفعان بالكاد وترتطمان بالأرض التي تشدهما بقوة وتقبض عليهما • أتحرك بكل مافى قلبى من اصرار ، في استنفاد • وهأنذا قد ضاع منى قطارى • تصلبت ساقاى وناء بجسمى كله وطء رازح فى العضلات التي سفحت كل قطرة من جهدها • أجرى بايقاع ثقيل تتخبط ساقاى احداهما بالأخرى ، وقد مضى القطار عنى ، بقوة ، وصفر صفيرا أجش ملأ سماء الليل • أطامن الآن من اندفاع ساقى اللتين لهما ارادة خاصة ويائسة ومستقلة • ولكنى لاأجد فى صدرى حرجا ، أى حرج ، ولا أجد أنفاسى تتدافع ، بل كل شىء هادىء وفسيح ، وأنا وحدى ، لاأريد شيئا ، ولست حزينا ، ولا قلقا ، ولا واجفا ، بين القضبان المتواصلة المتباعدة فى باحة هذه المحطة الساكنة الآن تحت السماء الخالية •

وسمعت النداء ٠

من ينادينى ؟

كنت فى الشارع النظيف المبلط بالبازلت الأسود المحدب قليلا ، فى وسط ساحة ضيقة تلتقى فيها قضبان الترام الدائرية التى تلمع من المطـر ، وقد أقلع الآن وتـرك فى السمـاء سحـابا أبيض يطفـو على الزرقة المغسولة ٠ وأنا أريد أن أعبر الشارع من أمام جـدار مدرسة السبع بنات المصمت الطـويل المرتفع وقد نشع ماء المطر عند أعلى بياضه الكابى قليلا ٠

عسكرى المرور يستدير وينظر الى من أعلى بوجهه القاتم المدفون العينين ، ليس فيه أدنى تعبير ، ويرفع ذراعه ، يفتح لى الطريق بـلا عناية ٠

أخطو خطوتى الأولى ، واذ بالسـاحة قد ازدحمت مرة واحدة بأربعة تراموايات قادمة هاجمة ، مقدماتها الزرقاء عالية ، مسدودة ، تقتحمنى وأنا فى سرة الساحة التى ضاقت على جدا ٠ والسائقون الأربعة الذين أراهم كثيرين ، بلا عـدد ، من وراء الواجهـات الزجـاجية المرتفعة ، مهددين يمسكون بالعصى النحاسية الأفقيةـ القصيرة بقوة وتمكن يهزونها أقل اهتزاز ، بتصميم ٠ والترموايات الأربعة جميعـا من كل الجهات تندفع الى

على قضبانها في زئيرها الهادر · لا وقت للرجـوع ولا للتقدم ولا للحركة في أى اتجاه ·

محاصر ، بل قد أطبق على الحصار ·

لا أريد أن أموت وأنا محاصر ·

أنا الذى دفعت بنفسي الى هذه البؤرة التي لا خلاص منها ، وكـأنني أنا الذى دعوت هذه القـاطرات التي تقتحم على العالم ، وتسقطني في هذه الحلقة المتزلزلة بالطاقة المهددة · فاذا لم أستطع أن أحطم الحصار ؟ كيف أثبت له ؟ وكيف أخـرج ؟ وهل أنا الذى جئت بنفسي فعلا الى هذه الوحدة التي تضيق على ، بقوتها المداهمة المتفجرة ؟

وأنا في وسط القضبان وحدى على البازلت الأسود الشرير الـذى يومض · والتراموايات جميعـا تنقض على ، لعجلاتها صوت احتكاك الصلب ، ثاقب تقشعر له كل جـوارحي وتصطدم في دوى تتخبط له جـدران الشارع ، تقرقع وترتطم ، ثم يحل صمت تام · وأرى السحاب الأبيض ينزلق على هواء البحر المبلول ·

وأسمع النداء باسمي ·

من يناديني ؟

كانت تقف وحدها على الرصيف تحت ربوة الرمل العالية الناصعة البياض ، والنور ينسكب بين الأعمدة الباسقة بأغصانها الحديدية الوثيقة الحنان ، من زجاج السقف بعـروقة الصلبة الرقيقة ، ورواسب الدخـان القديمة باهتة عليه ، مشعة بما تتشربه من صفاء زرقة السماء ·

وجهها المدور بسمرته الرقراقة يضيء ، وشعرها القصير المغوى تحيطه هالة من وهج شمس الظهر، وكأنه ذهبى مع أنه وحى السـواد ·· عينـاها تضربان قلبى بخضرتهما الحوشية ، صدرها بكبريائه ولدونته يداى تحدسـان ــ وكأنمـا تتذكران ــ نعومته وحجم دورانه وتماسكه الطيع ، وهى شبقية كأكثر مايمكن ، كأخصب وأملأ مايمكن · هل هى التى تنادينى ؟ وفى عينيها هذه النظرة التى كأنها متحيرة ، وهى عارفة · هذا الضوء الذى يسـقط عليها انمـا ينبع منها ، مثيرة ومحبوبة بما لايمكن أن يقاس ·

دموع العمر كله لن تغسل وضر القلب الذى يشتعل مع ذلك بوجد ساطع اللظى · محرق · أهو مطهر من اللوثات ؟

كانت لدنة ، مليئة ، فى فستان حريرى مقفل على رقبتها ، وهو يسلم عليها · أحس يدها الرخصة متروكة له من غير رســاله · فلم يقبل · جاش فى صــدره أنه يريد أن يقول لها كم يحبها · امتدت يده إلى مؤخـرة رأسها · فى يديه منجديد دغدغة الشعر القوى الوحف، حس النعومة وخشونة الملمس معا فى أطراف شــعرها وعمقه · وقبلها بصمت على فمها المبذول بصمت ، فى الأول ، المستسلم من غير حركة ، ثم ارتعش فمها تحت شفتيه ، صــدرها المحبوك يرتفع تحت صــدره ، يده تتلمس مؤخرة عنقها الغضة ، أنفاسها تتسارع باللهفة القديمــة التى يعــرفها وتثيره ، تنتقل اليــه قبلتها ، شفتاها متطلبتان متلمستان الآن تضغطان على شفتيه ، فيهما اجابتهــا ، كأنما تطلب النجــدة من الوحشــة ، وتستغيث من القهر الجسدى ·

ثم انفلتت عنه بسرعة ورفق وتحوط ، وهى تنهج، وقد تضرج الدم فى سمرة خــديها الرخيمة الملمس ، وعيناها فيهما هذه النظرة الغائبة ، صافية جدا ، خالصة من كل غربة ، وكأنها فى الوقت نفسه مستغرقة فى غربة نهائية ·

كانت هى التى أفاقت ·· أولا ، من بهرة المفاجأة·

قالت له : القطار ..

قال لنفسه : الحلم الحلم الحلم . وجوده الحجرى الآن ثقيل . يتطلب أن يرفع عن كتفى .

وقال : كان الحلم خفيفا ، وطائرا محلقا بين السحاب أرنو اليه بعين الاطمئنان ، كأنه فى متناول اليدين .

أما الآن فقد سقط على بثقله الركين ، ينوء بى ، لا أستطيع أن أنهض به من الأرض .

ساقط أنا تحت وطأة الحلم لم أعد أقوى عليه .

يداى خاويتان تحتكان بالحجر والرمل الخشن ، على مشارف مدينة منتهكة .

(٥)

كنا عائدين للاسكندرية بعد أن قضينا الصيف فى الطرانة قرية جدتى • ذهبنا من السكة الزراعية ، على الترعة الكبيرة المتدفقة بمياه الفيضان الحمراء السريعة الجريان • وكنا نركب أنا وأختاى الصغيرتان على حمارين ، ومعنا الولد برسوم ، ابن أرسانى أفندى خال أمى ، يجرى حافيا ــ مع أنه ابن باشكاتب العزبةــ الى جانب الحمارين • رفع جلابيته بيده ، وخلع حذاءه الجديد ووضعه تحت ابطه ، وأخذ يحث الحمارين بعصا قصيرة من خشب السنط • وكان برسوم أصغر منى قليلا ولكن معرفته بأمور النساء واناث الحيوان أكبر مما أعرف بكثير ، حتى ولو كنت قد سبقته ، من زمن ، فى يقظتى الشبقية • وكان قد حكى لى طول الصيف عن

مغامراته المراهقة مع القطط على سطح البيت فى ليالى القمر ، ومع الحمارة البيضاء فى الغيط ، وعن حكايات نسوان القرية وما يفعلنه فى الذرة مع الرجال . وكانت حكايات .

ولما وصلنا محطة كفر داود ، كان قطار الصبح قد قام وفاتنا . وجلسنا ننتظر قطار العصر فى المحطة الصحراوية الخاوية ، ولعبنا الاستغماية فى المحطة كما كنا نلعب مع لنده ورحمة تحت شجرة الجميز الكبيرة أمام بيت جدتى . وفككنا الحبل من حول القفة الكبيرة ، وأكلنا من القراقيش التى صنعتها لنا جدتى من دقيق القمح والزبدة ، وشربنا من حنفية المحطة .

ركبنا قطار الخط الغربى بعرباته الخشبية القليلة المقفلة ، وكانت النار تتوهج فى نور العصر بحمرة اللهب الذى يفح ويتقد ، مليئا ومتواثبا بقوة فى بطن القاطرة المدور الاسود .

وعندما كان القطار الرقيق الصغير يشق جسم المساء بعرباته المتأرجحة كنت أرى على جانب القطار عيدان الذرة محترقة وعارية ، فى آخر نور الشمس ، نزعت عنها أكوازها المغلفة بقشرتها الدسمة الخضراء المضمومة ، ووضعت الثمار الغضة فى أكوام عالية

متحدرة على رؤوس الغيطان ، وحطام أوراقها متناثر على سواد التربة ، صفراء وهشة .

وانطلقت فجأة على الترعة العريضة أسراب متعاقبة من العصافير ، داكنة اللون كأنها خفافيش صغيرة ، أجنحتها رفيعة وطويلة ومشدودة حتى آخر أطرافها ، ترف قريبا جدا من سطح الماء .

وقبل ايتاى البارود كان الليل قد نزل ونامت أختاى على المقعد ، وأضيئت المصابيح فى العربة ، مطلية بالأزرق ، طويلة ، وبيضاوية ، تريق نورها المنهك على المقاعد المصنوعة من ألواح رقيقة متلاصقة من الخشب اللامع .

ومر القطار بعربات الجاز الصغيرة عليها خط عريض أسود ينزل من الصنبور الأفقى فى أعلى العربات ويلف على بطنها الداكن الحمرة فى عتمة الليل المشعة ، وهى مركونة على القضبان الجانبية فى ساحة المحطة .

كانت محطة ايتاى البارود مظلمة تماما بالليل . وكنا قد نزلنا من الخط الغربى وصعدنا على الكوبرى المعدنى العالى فوق الأرصفة والقضبان ، ونزلنا ، أنا أحمل الشنطة المصنوعة من الورق المقوى البنى التجزيع تقليد الجلد ، وأختى عايدة ترفع على رأسها القفة

الكبيرة الثقيلة التى تكدست فيها القراقيش ، والوزة المذبوحة ، وصفيحة السمن الجاموسى ، كلها ملففة ومدكوكة ومصطفة بين اللفف والجلاليب المغسولة والفوط ، وقد ربطنا اللحاف القديم داكن اللون فوق القفة بحبل متين ، مكشوفا للعيان وله رائحة ، أما أختى لويزة فكانت تضم بين ذراعيها ثلاثة لفف صغيرة مربوطة بخرق من القماش .

جلست بجانبى من ناحية ، أختى عايدة التى ماكادت تبارح طفولتها بعد ، مايكاد صدرها الصغير يرفع فستانها الكستور الطويل ، سمراء صعيدية ، شعرها جعد خشن يؤكد بسواده سواد عينيها اللوزيتين ، بنظرتهما الحزينة ، ومن الناحية الأخرى أختى لويزة ، الصغيرة ، بوجهها الأبيض وجسمها الممتلىء الطفلى ، والتصقتا بى من برد الليل . كنا قد وضعنا الشنطة والقفة واللفف الأخرى الصغيرة على الأرض تحت المقعد الخشبى المقعر الظهر الداكن الخضرة فى الليل ، أمام جدار مبنى المحطة المظلم - كان مكتب الناظر وحده فيه نور أزرق كاب منتصب مباشرة على عدة قطع التذاكر الحديدية الصغيرة ، وراء الشباك بقضبانه المتقاطعة وفتحته الصغيرة .

دخل المحطة بصمت قطار عسكرى طويل • الأرقام، والكتابة الذهبية الباهتة ، غير مقروءة على بطن القاطرة المدور ، والعربات لا نهاية لها ، غاصة بالجنود الانجليز، امتلأت النوافذ المفتوحة بوجوههم الملتبسة وأذرعهم المكشوفة فى القمصان الكاكى بنصف كم ، فى النور الأزرق الشحيح ، وهم يطلون على المحطة فى نصف اليقظة ونصف النوم •

كان العطشجي فى أول القطار يملأ خزانه بالماء الذى كان له صوت صلب متدفق وأجش اذ ينصب من خرطومه المضلع الثقيل الجلد المثبت فى الصنبور الأرضى الضخم • وكان القطار آمامنا على الرصيف ، يقف موحشا ومعزولا لم ينزل منه آحد ولم يصعد اليه أحد، ولم يقترب منه أحد الا باعة السميط والجبن واليوسفندى الذين تخطف العساكر بضاعتهم الهزيلة الشكل ، وكانت صيحات المساومة بالانجليزية المكسرة والعربية المكسرة تتجاوب فى الليل • هرب بعض العساكر الى داخل القطار دون أن يدفعوا ، وجرى البائع على الرصيف من نافذة الى نافذة ينادى جونى جونى جيف هير فايف بياستر جونى فايف بياستر ، وضحكات رفيعة وغير حقيقية ، عبث الذاهبين الى موتهم صبيانا أراهم من

النافذة ليسوا أكبر منى الا بقليل ، ناموا على المقاعد الخشبية فى شحوب النور الأزرق ؛ وانحنى ولد منهم له وجه طويل نحيل باهت اللون من النافذة أمامنا وهو يشير الى أختى التى التصقت بى أكثر ، وعيناها السوداوان مفتوحتان على سعتهما وليس فيهما خوف بل سؤال صامت عميق . وقال الولد بلهجة لم أكد أفهمها : بنت بنت كام أون .. فانتازيه .. كام ويذمى ، وهو يضحك ، وأحسست الدم يتدفق الى رأسى وصحت به بصوت سمعته مخنوقا وأبح : شط آب شط آب يوبلدى باسترد وضاعت صرختى ورأيت الولد العسكرى يذهب فى الليل فاغر الفم يضحك ولا أسمع له صوتا اذ تحرك القطار فجأة وهو يصفر صفيرا أجوف غائر الصدى وينفث بخارا أبيض كثيفا فى الظلام ، ومرت النوافذ متسارعة الايقاع متتابعة مليئة بالوجوه الباهتة التى كأنما هى من الآن وجوه الميتين . ثم جاءت العربات المكشوفة المسطحة الأرضية تحمل دبابات صغيرة صفراء مشرعة المدفع مربوطة بسلاسل قوية ، ومعدات مفكوكة ، وغامضة ، مدببة الحواف ، مغطاة بأغطية من المطاط الأسود الثقيل . وسألتنى أختى لويزة ماذا كان يقول العسكرى الانجليزى فرددت عليها بخشونة وعنف لاشىء

لاشيء اخرسى انت كمان فصمتت ورأيت الدموع تلمع في عينيها ولاتنسكب .

ساد المحطة صمت مفاجيء وأحسست هواء الليل باردا على وجهى المندى بالعرق .

ضممتها الى ونحن نقف على الرصيف الخالى تحت السقف الزجاجى المنير وأحسست صدرها الحريرى فى حضنى ، صامتة الآن مستسلمة وقد أغمضت عينيها .. استكنت ريحانتاى الخضراوان فى رقرقة الحب الذى لم أكن أعرف عندئذ مدى الوجع الذى سوف يمضنى من فقدانه ولا مخض الألم الذى سوف يطوح بى الآن فى وحدتى الصامتة . لأواء هذا الصمت الذى يجأر وحشيا وليس له أبدا لغة ولا صوت .

وعندما جاء القطار أخيرا دخل على الرصيف الآخر البعيد ولم يكن فى المحطة الصحراوية الصغيرة نفق ولا سلالم .

جرينا معا متماسكين بالأيدى الى آخر الرصيف ، وهبطنا ، تتسارع أقدامنا بالرغم منا على نهاية الرصيف المنحدرة ، ونحن ننظر لأحدنا الآخر . وكدنا ننزلق على القضبان المزدوجة ، وضحكنا .

والقطـــار يتحرك الينا فجـأة ونحن تحت • تعلو
مقدمته الحديدية المربعة الشكل البارزة الى الأمام ، فوق
رأسينا مبــاشرة • وأرى الخطوط العـــريضة المعدنية
لا ايقاف لها أمام عينى ، قريبة جدا • ساقاى ثقلتان
منى وأســقط على القضــبان ، أمام المقدمة تمــاما •
ويخطف فى قلبى الروع عليها • أين هى ؟ أسالمة هى ؟
ألم يحــدث لها شىء ؟ حنــوى لها يعصف بى وأنا على
الأرض • الســائق يطل من باب القــاطرة على جنب
يشور بيد ويهتف بشىء لاأســمعه ، ويده الأخــرى فى
الداخل تضغط على شىء ما ، على عمــود ، أو زر ، أو
حلقة • وأحس يدى على الزلط والرمل الخشن تضغطان
معه بقوة ، بشدة ، بكل مافى جسمى من أيد واصرار ،
لكى أوقف معه القطار الزاحف علينا بجرمه الضخم ،
ببطء ، كأنما لن يرده شىء أبدا ، فيه طــاقة مكبوحة
وساحقــة • وأرى المصــباحين الأماميين المســتطيلين
برجاجهما الصلب المطفأ تومض عليه أشــعة الشمس
وتنعكس على عينى • وأجدها معى تســندنى بذراعيها
كلتيهما ، وأنا أقوم بحركة أحسها بطيئة لاتنتهى ، وقد
نزف من قلبى كل حس كأننى غريب • ونحن نتحرك
معا أمام القطار الذى ينساب وراءنا مباشرة ، باصرار •

والرصيف قد امتلأ فجأة بالناس يصرخون ، لابد أنهم يصرخون ولكنى لا أسـمع صوتا ، ويلوحون بأذرعهم ويجرون على الرصيف معنا وينحنون ناحيتنا ، يصيحون بنا بلا شك ، ومازلت لاأسمع شيئا · قدماى تتحركان أمام مقدمة القطار بالضبط ليس بيننا وبينها الا خطوة واحـدة لاتزيد ولاتنقص · لايصـطدم بى القطـار ولا أسقط تحتـه · وهى معى لا أحس الا بذراعيهـا تمسكان بى مسكة خفيفة ولكن واثقة لاتتركنى · وجهها هادىء وعيناها تلمع فيهما الشمس بخضرة داكنة ليس فيهما خوف ولا قلق بل لايكاد يكون فيهما اهتمام وان كانتا مغروزتين فى ، ونحن نتحرك معا بايقاع واحد، بضع خطوات أيضا ، طويلة فى الاحساس جدا ، وكأننى أرقب شخصا آخر يداهمه القطار ومعه حبيبته ، متفرج، مدرك تماما للخطر ، ولكن بلا أدنى رعب ، ولا أدنى توجس ، أنتظر فقط · لو جاءت الصدمة النهائية الآن، وسقط كل شىء · لو تحطم كل شىء · لو حلت الظلمة الأخـيرة والصمت · طبيعى ، وحتم ، وأكاد أريـده ، ولا أرحب به · ولكن لا أرفضه ، لا أستسلم له أبدا · ولكن فليأت ··

القـاطرة مازالت تزحف علينـا ، تنزلق ، وتكاد

تلحق بنا ٠ حتى يستطيع السائق بجهد جهيد أن يوقف القطار ٠

ونتوقف لحظة ومازال الصمت حوالينا ساطعا وفسيحا وكاملا ٠ ينحنى الناس علينا يمدون الينا أذرعهم ويرفعوننا من تحت ٠

للمرة الأولى أسمع لغط الناس وصياحهم ونداءاتهم ودبدبة أقدامهم على الرصيف ٠

الشيخ الذى يلبس جلبابا أبيض مكويا له ياقة رفيعة قائمة تدور حول عنقه الضامر ، وعلى رأسه طاقية من نفس القماش ، فى يده مسبحة ويده الأخرى متوترة الأصابع مشدودة نحوى ، وأسمعه ، وهو يهمس: لاحول ولاقوة الا بالله ٠ الحمد لله ٠٠ الحمد لله ٠ والست الفلاحة البيضاء الوجه ، بالملس الأسود المكشكش الذى انحدر على كتفها ، وهى تهتف : اسم الله عليكم ياضنايا ٠! دانتو انكتب لكو عمر جديد ، ياختى ! اسم الله عليكى ياحبيبتى ! اللهم حوالينا ولا علينا ٠ والطلبة ، بالبنطلونات والقمصان ،والكتب فى أيديهم، ينزلون جريا الينا ويحتاطون بنا ٠والفلاحين بأجسامهم النحيلة تحت الجلاليب الصوف المفتوحة عن الصديرى المزرر بأزرار صغيرة كثيرة ، ووجوههم الصلبة المشققة،

قد ركعوا نصف وكعة على الرصيف لايتكلمون ، على إستعداد أن يهبطوا للمساعدة · والعساكر بملابسهم الكاكى وأحذيتهم السوداء الطويلة قد لحقوا بنا والتفوا حولنا الآن يضحكون بخشونة وارتباك بعد التوتر والشدة ، ويرفعوننا على الرصيف بسواعد قوية · ونحن نعلو على هذا الجيشان المحتشد من الأذرع والأيدى واندفاع النجدة المتدفق بالتهنئة على السلامة والحمد لله ·

ثم انفض الجميع فجأة واتجه الناس الى أبواب القطار كأنما بخجل قليل واضطراب بين الضحكات القليلة وثرثرة الحس بالنجاة والانصراف الى ركوب القطار ·

هل كان بالأمس فقط أنه صحا من نومه جنبها محاذرا أن يوقظها ، وقبلها مع ذلك قبلة خفيفة جدا على شفتيها ، فردت على قبلته وابتسمت وهى نائمة ؟ ونزل، حريصا على صمته وهدوئه ، وانتهى من «طقوس الصباح» ــ كما كان يقول لها ، فيضحكان ــ ولبس فى السكون الصباحى التام وهى مستغرقة فى نومها على سريرها ؟ كانت قد قالت له : سريرنا ·

وكانت الملاءة الخفيفة تغطيها حتى الوسط ، وفخذها

العارية السمراء ، محتشــدة بشبقيتها وجسدانيتها ، تخرج عن الملاءة ، وفخذها الأخـرى كامنة مستترة ، ولكنها هنــاك • كتفاها المدورتان تدعــوان شفتيه ، وشعرها الأثيث مندى قليلا من النوم ومشعث قليلا ، نزلت خصلة منــه رقيقــة ومبلولة ملتصقة بجبهتهــا الصغيرة المستريحة ،وخداها متضرجان • كانت مستلقية على جنبها ، كل معــارك شــهوتها قد انقضت ، لحظة ، وتركت جسدها الباذخ بحتا ، ممتلئا بحشده الخالص ، فى براءته غواية خاصة لايمكن أن تكون ـ فى حالة صحوه ـ بكل هــذا الكمال • غائبــة وكلها هنــاك فى وقت معا •

وكان الديك الأحمر على الحــائط الحجــرى يفتح منقاره فى زقائه الصامت المتصل وعيناه متوقدتان •

انحنى عليها ، حفيا بها ، ورفيقا وساكنا ، يرد جواه الى طى نفسه حتى لاتعصف بهــا برحاء شــهوته وحنانه معا ، ولهفته ، بينما كل جوارحه تنتقض عليه، وتجيش وتتوتر • كان ثدياها مضــغوطين تحتهــا فى النوم ، مترنين فى اكتنازهما وحريتهما معا • ثمرتاهما الداكنتان قائمتان مع ذلك ، مترعتان ، جلدهما المشدود المدور مخدد لايكاد بشقوق دقيقة جدا ، فى نور الشمس

المتقطر من النافذة الزجاجية المفتوحة على الصحراء والأنقاض القديمة · أما الوهدات اللينة والربى الزاكية فملتفة بها الملاءة المتغضنة الملتصقة المهملة الثنايا ·

أحاط كتفيها بذراعه ، وامتدت يده تسند نهدها المضغوط وتلتف به ، وهمس فى أذنها : حبيبتى ·· فتململت قليلا فى راحة ، وتنهدت · وأحس نهدها وادعا الى يده ومطمئنا فيها · ورفرفت عيناها قليلا وهى تموء من داخلها : امممم ·· بصوت خفيض مبطرة بالنوم الوثير · قال : أمشى أنا الآن · مسافر اسكندرية ، وأعود الخميس بعد غد · خليك ، لاتقومى · أراك بخير · قالت ومازالت نائمة بالفعل وهى تعطيه خدها لقبلة سريعة : مع السلامة ياحبيبى ·· لاتتأخر ·

وأغفت فى صمت فى ليل نومها المضىء ، لحظة ، فى أول الصبح · لم يكن قد خطا خطوة واحدة · وعندما اعتدل واقفا استدارت على ظهرها وفتحت عينيها الواسعتين صاحية فجأة وقالت ، بصوتها الطفلى المستعطف ، فيه شكاة قليلة وتطلب للحنان :

ـ هل عدت ياحبيبى ؟ حمد الله على السلامة · كم كان سفرك طويلا · كم افتقدتك ·

لماذا تأخرت ؟

ترقرقت عيناه على الفور وعرف مرة أخرى طعمة الحب فى قلبه ٠

وقد استقر الآن عــلى مقعدهما الجلدى الصلب مسافرين معا أخــيرا فى هــذا القطار يقطع البرارى المتموجة حتى سطوح المياه المالحة المتخثرة بحياتها الراكدة بين البوص والهيش ٠

ليس فى القطار درجة أولى أو ثانية ، والنــاس حولهما قليلون ٠ عساكر نازلين اسكندرية فى أجازة ، خلعوا البيريه العسكرى اللين من على رؤوسهم الحليقة نائمين تقريبا ،وقد مددوا أمامهم أرجلهم فى البنطلونات الكاكى والأحـذية الميرى ٠ اثنــان ثلاثة من البدو ، بالملابس البيضاء والسراويل القماشية الطويلة التى تضيق عند نهاية الرجلين ، فى وجوههم نحول وصفرة محروقة ٠ وشاب أعمى من المعهد حليق جدا ومتيقظ جـدا ، رفع رأســه الى فوق بعمامته الحمراء الملفوفة بالشاش الأبيض ، وجبته الطـويلة على قفطان مخطط لامع ، يقرأ بصــوت خفيض ولكنه قاطع وواضـــح : «ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى» والست البدينة أم ملس واثقــة بجســمها الفيــاض بالأنوثة المتمكنة ،

تمصمص بشفتيها اللحيمتين : ياخويا ·· صدق الله العظيم يامولانا ·· ثم تدخل فى حديث طويل مع فتى واضح أنه طالب عائد لجامعته فى أسكندرية ، البلوفر الخفيف على قميصه الأزرق الفاتح المستورد ، والبنطلون الجينز ، لاشك اشتراها مخفضة ببطاقتة الجامعية ·· وانت يابنى فين ؟ فى الهندسة ؟ ربنا ينجح مقاصدك ويخليك لشبابك انت واللى زيك يارب · طب دانا عندى ولد فى الثانوية العـامة الســنة دى حيموت نفسه فى المذاكرة ياعين امه ·· نفسه يروح الطب والا الهندسة · ربنا ينوله اللى فى مراده هو والسامعين ، وهى تنظر وفى عينيها حساب ووزن ، للفتــاة بالمنـديل الأبيض السابغ الذى يلف وجهها وشعرها وينزل من على كتفيها، وفى أذنيها قرط فضى صغير دقيق ، وفستانها بأكمام طويلة ينزل الى الأرض ، وسيور حذائها المفتوح تضغط على لحـم قدميها · والبنت تدخـل ذراعهـا فى ذراع الطالب الذى ينظر أمامه كأنه لايحس ماتفعل ، بينما هى ترفع اليه وجهها معابثة ونصف باسمة · والست تقول بصراحة الفهم والقبول : ربنا يهنيكم ببعض يابنى ويخبز لكم فى الخير ·

عــربة القطــار تقرقع بانتظام ، وهى تصــطلى

بشمس سبتمبر الهـادئة ، والشـبابيك كلها معوجة محشورة فى مجراها ، وليس لها زجاج ، يدخل منهـا الهواء السخن ، قام الفلاح الجاف الجسم يحاول أن يغلق الشباك فى وجه حبات الرمل الذى تسفيه رياح القطار الى الداخل ، ولم يسـتطع ، فجلس وهـو يقول لنفسه شيئا بصوت غير مسموع ٠

كانت الرمال ممتدة فى نور الصحراء الأبيض حتى الملاحة التى تومض بموج بنفسجى فاتح ماؤه سـاكن كالصـفيح اللامع ، يذوب عنـد الأفق الباهت الزرقة الذى ترتفع على حافته البعيدة عمائر من الهواء المهتز ، ركام من السحب لها طبقـات كأبراج كنـائس غامضة ثابتة وهفهافة معا ، متشععة بلون الملح ٠

كانتذراعه قد استقرتعلى كتفها الراسخة الطيعة، من وراء مؤخرة عنقها التى يحس نعومتها على قميصه الصيفى ، ويحس أيضا دغدغة شـعرها الجعد اللين ، ويده قد هدأت على أعلى ذراعها النازلة تحت الفستان الحريرى فى دوران كامل الامتلاء ٠

وسأل نفسه : هـل انتهى البحث ؟ هـل وجـدت ماأنشده ؟ وكان فى داخله يقين لا إنكار له ٠ ونادى : ياشبلى ياشيخنا ٠ هـل المعـرفة دوام الحيرة ؟ وحقيقة

المعرفة العجز عن المعرفة ؟ وقال لنفسه : أهذه جوهرة حبى ؟ وكانت مستكنة اليه ، حمامته السوداء الوديعة الآن ، وردته السرية . نفسها هادىء وايقاع جسدها فيه رضى واكتفاء باللحظة الصامتة المشبعة . فأغمض عينيه عن ثرثرة القطار وجلبة الناس ودقات العجلات المنتظمة الرتيبة التى أتخمت نفسه ، مرة أخرى ، بالخدر الذى يهبط فى جسمه وتتفتر به جوارحه تحت وقع الهدات المتراوحة فى اصرار لايخطىء أن يأتى ، مرة بعد مرة بعد مرة ، دون أن يبدو أن سيكون له أبدا انقطاع .

وحكى لها أنه فى ليلة عيد القيامة الموحشة التى جاءت قبل أن تسقط القدس ، عاد ماشيا للبيت فى شوارع الاسكندرية الصامتة بعد أن انقطعت التراموايات . كان الاجتماع قد استمر طويلا فى الليل ، وكان الجدال واللجاج قد عصف وتقلب بالجماعة الصغيرة المتوقدة بالحماسة والشباب . وقال انه كان قد كتب أخيرا مشروع البيان ، وكانوا سيطبعونه من الغد بالاستنسل على الماكنة التى صنعوها بأنفسهم . وقال ان سذاجة ثوريتهم كانت بريئة وصافية وحمقاء قليلا ، وكانت غضبتهم حاسمة ورفضهم قاطعا . وخرجوا

متفرقين ، وعلى فترات ، من المنزل الصغير فى المكس الذى كان يقيم فيه سـلامة العـامل الوحيد فى لجنتهم المركزية المؤقتـة • وقال انه ركب قطـار المكس فى الليل ، خاويا وقديما وصغيرا ، ونزل فى محطة محرم بك ، وكان يشبه هذا القطار •

رجعت الى بيتنا فى راغب باشا وأكلت سمكة بلطى مقلية باردة كانت أمى قد تركتهـا لى فى طبق مغطى بفوطة نظيفة على مائدة الفسحة العريضة • وأويت الى سريرى وأخذت أقرأ فى مجلة الشعر الدولية التى كانت تأتينى من باريس ، بالبريد ، حتى باب البيت • وفتحت الراديو الكبير الذى كانت له واجهـة عريضة تضىء ، عنـدما يشـتغل ، بالنور الأخضر • وتذكرت فجأة أنها ليلة عيد القيامة عندما سمعت صوت البطرك العجوز المنهك من الصيام الكبير ، يرتل بالقبطية أسماء الآباء البطاركة القدامى جميعا من مار مرقس الرسول حتى الأنبا يوساب ، اسما بعد اسم يبعث من أغوار القدم ويحيا بالترتيل ، من جـديد • رقية طـويلة التسلسل لاتنتهى • وأحسست فجأة أننى ابن هـؤلاء البطاركة العظام ، آباء المدينـة العظمى الاسـكندرية والكور والجـــزائر ، ولايمكن أن تكون لى الا أبوتهـم ، وأن

ماكتبته منــذ ســاعات ونافحت دونه يربط بين قلبى وبينهم وبين الأرض المستباحة ، برابطة حميمة خفية لم أكن أتبينها • وعرفت أن هناك تبريرا كاملا لى •

كان الشاب الاعمى يصغى الى حكايته باهتمام ، صامتا ووجهه مضىء ومتأمل وفيه وسامة لم يرها من قبــل •

قالت له ، هامسة ، باسمة : طول عمرك ياحبيبى لك شطحات غريبة جدا •

وفى عتمة خفيفة كأنه يتذكرها ولكنه يعرف أنهــا هناك ، فى نصف حلم نصف يقظة ، سمع نواح القاطرة المترامى فى السماء ، والارتطــامات الحــديدية التى يتردد صداها فى الليل الفسيح خارج حيطان غرفته • عويل معدنى شاك طويل • بينمادق المنبه الى جانبه يأتيه سريعا وعصبيا ولجوجا • وأزيز طائرة ينطلق فجأة فوقه فيملأ غرفته ، يصعد وراءه نباح الكلاب التى تجمعت فى الشوارع تجرى وراء صوت الطائرة وتطارده • كان البرص المصفر البياض ثابتا مقلوبا على بطنه ومفروش الأرجل على سقف الغرفة ، فى نور سماء الليل الغامضة، وذيله الطويل لايتحرك • وفكر أن بحــر البقر ونجع حمادى قد ضربت وأن الأطفال والعساكر يموتون • ولم يفكر فى شىء آخر •

من القطار بأسوار عريضة عالية فى الصحراء عليها لافتات ضخمة بالانجليزية والعربية ، وبين الأسوار سيارات جديدة مستوردة من ماركة واحدة لم يستطع أن يحددها · مرسيدس ؟ فولفو ؟ بيجو ؟ بألوانها الزرقاء والحمراء والصفراء والفضية ، صفوفا متعاقبة لامعة تحت الشمس ، كشواهد قبور معدنية ·

ثم وقف القطار فى وسط العراء الصحراوى دون تفسير ، دون سبب · ليس هناك محطة ولا مزلقان · السكون الغريب يحل فجأة ويصمت الناس مرة واحدة ويهب الهواء المنعش فى الصمت ، جافا وخفيفا ، وفيه رائحة البحر ، ورائحة الرمل السخن · دخلت من الشباك ذبابة وحيدة زرقاء كبيرة تقلبت ألوان جناحيها الرفيعين فى شعاع الشمس ، وهى تئز أزيزا لحوحا ، عنيدا ، يكهرب الأعصاب ، وتحوم فى دوائر سريعة متقاطعة ، حتى اندفعت فى النور خارج الشباك· قالت الست أم ملاية ياختى خير اللهم اجعله خير ، هو فيه ايه ؟ وقام الطالب ، سحب ذراعه من ذراع زميلته، وذهب الى مقدمة القطار ليسأل ، ربما ، عن السبب · وانخفض صوت الشاب المعمم وهو يلم حوله جبته وقفطانه ، يقرأ بصوت غير مسموع · وفجأة احتكت

العجلات بالقضبان الحديدية فى انتفاضة حادة ، وتقلقلت العربات ، واستجمع القطار قوته بالتدريج ، وانطلق ، بطيئا فى الأول ثم متسارعا ثم منتظم السرعة، دون تفسير ٠

ندخل الآن على الاسكندرية ، والعربات تميل وتنحرف الى اليمين ، وتهتز بين القضبان المتشابكة ، وتتغير ايقاعات خبطات العجلات اذ تصطدم بالتحويلات المفتوحة ٠ والقطار فوق ربوة عالية ضيقة يضرب بين الأعمدة والسيمافورات التى ترتفع أذرعتها وتنخفض وتومض بالأخضر الكابى بعد الأحمر المحتقن ، والشوارع تحت جسر القطار خالية سوادها يلمع ببلل المطر وأشجارها تبدو ، تحت ، قصيرة ومقصوصة النواصى ، تمرق فيها سيارات قليلة مسرعة ٠ وتتوالى جدران المصانع والمخازن مقفلة وصارمة الشكل ٠ كان البدو الثلاثة صامتين لاينظرون الى شىء ، وجوههم منحوتة وجامدة ٠ والبيوت الفقيرة الجدران عركتها تقلبات الجو والأمطار القديمة والشموس المتعاقبة ، أدوارها العليا مفتوحة الشبابيك تتلاحق على مهل كأنها تطل على القطار ٠ وبعد وحشة الرمل ومياه الملح الشاسعة تبدو البيوت دافئة ومكنونة على طواياها

الحميمة ، تقترب من جسر السكة الحديدالمرتفع حتى لايكاد يفصل بينها وبيننا شيء • والقطار يبطيء قليلا فوق الفلنكات ويظهر الآن على جانبه ، بوضوح ، الزلط والحصى ونباتات الحلفاء وبقع من الخضرة الباهتة ، ونفايات ورق قديم وزبالة جففتها الشمس • نوافذ البيوت وشرفاتها الخشبية القلقة تكشف من غير خجل ، من غير أدنى حس بالخجل ، عن حياة الناس الداخلية وملابسهم الداخلية وأثاثهم الداخلي الرث الكثيف المزدحم بالكراكيب ، والجلاليب المرمية على مراتب بلا ملاءات ، وفساتين ذابلة الألوان ، ومرايا مكسورة الأطراف معلقة بمسمار ودوبارة على الحيطان وفوق الأحواض والحنفيات ، والآيات القرآنية بالخط الثلث الفخم وصور مارجرجس ، وبدرلاما ، وأسمهان ، والملك فؤاد ، مقطوعة من المجلات ومعلقة في براويز مذهبة متقشرة الطلاء •

كان الشاب المعمم قد نام ، مال برأسه على ظهر المقعد ، والجنود قد وقفوا ، طوال القامة ، بعد أن لبسوا أحذيتهم ، يستعدون للنزول •

وجاء المبنى الرمادى الكئيب بنوافذه الضيقة ، المتقاطعة بالقضبان الرفيعة السوداء ، وسوره المنخفض

الموحش عليه أسلاك شائكة ، وقامت عساكر الحرس فى أبراجهـا صـغيرة ، كالدمى ، على أكتافها بنادق لهـا ماسورة طويلة هشة ٠

وتنفتح الشوارع فجـأة تحت الأكمـة التى ينزلق عليها القطار ، وترتفع اعلانات الكينا الحـديدية فيها رأس أسد ضخم ووديع ناتىء الأنياب وله عيون انسانية جدا ٠ وتكنات بلوك النظام بجدرانها الكالحة، ونوافذها المربعة ، منشورا عليها الفـانلات والسراويل العبك المصفرة الطـويلة الرجلين ، والبـدل الكاكى المغضنة الداكنة من بلل الغسـيل ٠ ثم مستشفى الرمد يبـدو عاليا الى جانبنا ، أنيقـا ، وحيطانه بالطـوب الأحمر الداكن ، وله أبراج وأعمدة رشـيقة هيلنية الايحاء ، وحوله أشجار النخل السلطانى السامقة تنوس جدائلها المدورة فى زرقة السماء ٠

نظر الطـالب المترفع الى زميلته المحجبة المعابثة بنظرة فيها نصف ابتسـامة ٠ وقالت الست أم مـلاية ملس حمد الله على السـلامة ٠ ولف الفـلاح العجوز مسبحته حول اصبع يده ، وتنحنح فى تشوف مشارفة الوصول ٠

ونحن ندخل فى هواء البحر الرطب الى ساحة معقدة بشبكات القضبان المتوازية والمنفرجة والدائرية ذاهبة فى كل الاتجاهات ، وأعمدة الســيمافور المتتابعة عن قرب ، والمخازن الجانبيةالحجرية والخشبية عليهاتعريشات كثة من اللبلاب وتحت جدرانها نباتات التين الشــوكى والعتر البلدى ، والقطارات المركونة الخالية ، وعربات البضاعة المقفلة وحدها من غير قاطرات ، جدرانها لها لون صدىء وعليها أرقام طويلة جــدا بالانجليزية ، مهملة ٠

وفى العربة كلها تنهيدة راحة فقد أوشكت رحلتنا على الانتهاء ٠ ثم دخل القطار فجأة فى النفق ٠

أطبقت الظلمة الكاملة مرة واحدة وارتفعت صرخة ثاقبة قصيرة ، من الفزع ، وصيحات الركاب الملهوجة ٠ وكان القطار يخبط فى النفق ٠

خطر فى ذهنه أن هذا النفق القصير تحت كوبرى الحضرة لايكمن أن يستمر طول هذا الوقت ٠ واشتدت ضمة ذراعه حــول كتفها ، وأحس جســمها الوادع ، بكامله ، لصيقا به ، دفيئا وناعما ومليئا ، من غير خوف، فيه الأمن به ، والتسليم له ٠

كان القطار يندفع متحدرا الى الأمام كأنه يغوص بمقدمته الى عمق يزداد غـورا كلما مضى ، يصـطدم ويقرقع ، في طريقه الى جوف الأرض ، وقد اضطردت سرعته وكأنها اكتسبت عزما جـديدا لن يلويه عنـه شيء ٠

كل شيء يجـرى فى ايقـاع خـاطف ، والدقات المتلاحقة تزداد ارتفاعا فى النفق الضيق ، ويتضـخم صداها اذ تلتطم بجدران الحيز المحبوس ٠ وكأنما تجمد الناس فى هذه الانفجارات المتعاقبة القعقعة ، وصمتوا تماما ، وتشبث كل منهم بمقعده فى العربة التي تهبط مع سلسلة عـربات القطـار ، لن يوقفـه شيء الآن ٠ اصطفاق الحديد ولجب الهديد فى الظلمة الحاشدة التى أخذت تشف قليلا ، وهـو يرى كل من حـوله ساكنين بلا حراك ، ولايرى فى ذلك آدنى غرابة ولا مايستدعى السؤال ٠

يحس ثقل رأسها الهين على كتفه ، وشعرها الوحف تحت عنقه ، مستكنا اليه ، وهى نائمة ٠خدينته الموموقة المشتهاة التى لانتُ له الآن ، طيبة فى حضنه ، ووثيرة٠ هناك صمت عميق فى قلب هذا العجيج الموقع المنتظم الدقات ٠ وهى قد ألقت برأسها اليه ٠ كأنما لا مكان

لها فى العالم كله الا على كتفه ولا اطمئنان لها الا تحت ذراعه . وفخذها اللفاء تحت النسيج الحريرى الدمث يحسها الى جانب رجله . ويدها الرخصة فى يده ، على حجره ، مسترخية وهادئة فى ثقل النوم .

فى جوف الحوت المقتحم اللجج دعوتك فاستجبت الى دعائي من قلب نومك . وعندما طرحتنى الى عمق الجب أحاطت بى مياه الحنو الكثيفة الساجية وانفتح لى هيكل قدسك السلس المواتى ، اكتنفتنى غمرات جسدك المترقرق بين ذراعى ، فى العتمة الشفيفة ، والتف بى عشب البحر الغض المترجرج فى موجه . أحاطت بى وهدتى اللينة وتفتحت لى مغاليق كنزى . وكان اصطفاق الصنوج ساطع الدوى ونهائيا .

واندفع نور الشمس فجأة فى القطار .

فى اللحظة التى انتهى فيها النفق أحس أن القطار قد اصطدم صدمة أخيرة بشىء مطاوع وهين القوام . ووقف .

كان الناس يتدافعون بصمت ، كأن ليس فى الأمر شىء غريب ، كأنهم ينزلون الى المحطة التى يعرفونها ، وكل منهم مشغول بهمومه وحده . وثب الجنود ، كعادتهم

على كل حال ، من النافذة . وكان الشاب المعمم هادئا يتحسس جدران القطار وظهور المقاعد الجلدية بيديه ، من غير لهفة ، فى طريقــه للخــروج . والولد يحيط بذراعه خصر فتاته ذات الفستان الطويل ، يسندها ، وكأنه غائب لايســأل ولايهتم حقــا ، كأنه فقط يؤدى واجبا .

كانا معــا متماســكين بالأيدى فى ضمة حميمة ويائسة ، عندما سقطا من باب القطار فى نور الظهر الفسيح . غاصت أقدامهما فى الرمل الناعم . وكان شاطىء البحر أمامهما مباشرة ، والموج يأتى وينحسر ، مياهه المزبدة تضرب صخورا صغيرة مدببة ومشعثة ، قديمة الصُــفرة ، منقورة بحبيبات دقيقــة ســوداء ، وتــذوب رغــوتها بحفيف هــين عــلى الرمــل ، بين الصخور .

مقدمة القطار مدفونة بأكملها فى الرمل ، كأنما قذفتها قوة الاندفاع الأخيرة . وبقية العربات مازالت تحت الجسر الحجرى العالى ، واقفة فى عتمة النفق المدور الطويل . ولم يعد هناك أحد .

والبحر فسيح ، شاسع ، نقى الزرقة ، تلعب عليه خطوط الزبد المتعرجة ترغى وتختفى . كانت الأعمدة

الحديدية الناحلة معوجة وساقطة على الرمل ، وأنقاض المحطة تحيط بهما ، على شاطىء البحر • الأحجار الضخمة ساقطة وصامتة كأنما أطاح بها زلزال ، حوافها مكسورة بين أكوام من الهدد والزلط • وعوارض حديدية محترقة ومتلوية شاخصة من بين الركام • وقضبان السكة الحديد متقاربة من أحدها الآخر أمام مقدمة القطار ، ثم متطابقة ومغروزة فى الرمل • وأمواج السقف الزجاجى مازالت معلقة فى الهواء ، جانحة ، تهدد بالسقوط ، ولكنها ثابتة ، مدلاة من عمود مائل واحد قد استقر ، في وضع لايصدق ، بين نتوءات الرمل والحجر والحديد •

كانت تقف إلى جانبه ، جسمها الغض يلخص له العالم ، بلغة حميمة من غير صوت •

وتحت أقدامهما مباشرة ، تحت حطام المحطة المدمرة، كانت هناك هوة محفورة ، عميقة ، ضخمة وواسعة ، وجدرانها المتماسكة غائرة • وعلى قاعها العريض ، تحت ، بعيدا ، تتحرك قامات صغيرة تحمل على أكتافها قفف الأسمنت المخلوط • من أين جاءوا بها ؟ ليس هناك على الحافة الا كتل مكسرة متهاوية تكاد تنقض من على

طرف الحفرة الفـاغرة ، والأرض رملية تحتها ، هشة ومتفتتة ٠

ورأى ، من غير دهشة ، اثنين من الصعايدة ، تحت، ينفصلان عن صف الناس ، رآهما صـغيرين جدا كأنه يطل عليهما من حالق ، يتحركان حركة ايقاعية بطيئة موزونة ، وفى أيدهما عصى التحطيب ، مرفوعة ، وهما يصطدمان بالعصى ، ويناوران ، يرجعان ويتقدمان ، يتقاربان ويتباعدان ، ويدوران أحدهما حول الآخر فى رقصة موسيقى رجولية ، والجسم مشدود بكبرياء وخفة ٠

أحس الحـافة تحت قدميه تكاد تفلت وتتداعى ، فاشتدت قبضته على يدها ٠

هبت رائحة البحر ملحية ومطهرة ٠ ونظر اليها ، ولم يتكلم ، ولم يبتسـم ، كانا ، فقط ، فى وسـط الأنقاض ، معا ٠

الاسكندرية ابريل ١٩٥٥
القـاهرة نوفمبر ١٩٨٤

مطـابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٢٨٤/ ١٩٩٦
ISBN 977- 01- 4908 - x

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٢٨٤/ ١٩٩٦

ISBN 977- 01- 4908 - x

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى جنيه واحد
بمناسبة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٦

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

